ترجمة أحوال الإمام الربّاني
أحمد الفاروقي السرهندي

للشيخ محمد مراد المنزلوي المكّي

ضبطه وصحّحه وعلّق عليه

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي
الحسيني الشاذلي الدرقاوي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يا مَنْ لطائف مِنَنِه متواترة، وعوارف نِعَمِه متوافرة، صلِّ على نبيِّك المأمون، وخازن علمك المخزون، وعلى آله الكرام وأصحابه العِظَام وتابعيهم بإحسان إلى قيام الساعة وساعة القيام.

أما بعد؛ لمّا مَنَّ الله سبحانه وتعالى على عبده العاجز هذا بمحض فضله وكرمه بإتمام تعريب مكتوبات الإمام الربّاني المُجدِّد والمُنَوِّر للألف الثاني قُدِّس سرّه أردت أن أذكر نبذًا يسيرًا من أحواله الشريفة ومناقبه المنيفة، وما جرى عليه قُدِّس سرّه ممّا جرى على الأنبياء والأولياء والصُلَحاء من المِحَن والبلايا من الابتلاء بالحَسَدة وتطاول الجهلاء ومجادلة السُفهاء، وما صدر في نصرته وإعانته ومديحته من الأعزّة الكُمَلاء والأجلّة الفُضَلاء، مِمّن كانوا في عصره وبعده ليكون ذلك كالمقدمة السابقة للتعريب المذكور أو الخاتمة اللاحقة به، فتتمّ بذلك الفائدة ويتوفّر النفع والعائدة بأن يكون عونًا لمن يطالع التعريب المذكور، فإن أحواله قُدِّس سرّه وإن كانت معلومة ظاهرة للمحبّين الذين هم على طريقته، ولكنها لا تستبعد أن تكون مَخْفِيّة على مَنْ سواهم، خصوصًا من قرع سمعه خلافها من طريق حُسّاده، أو مُبْغِضي طريقته، أو مُعادي خلفائه وأولاده، بل لا يستبعد كونها خَفِيّة على كثير من مُنْتسبي طريقته أيضًا لقصور الهِمَم كما هو المُشاهد الآن.

فأقول وبالله التوفيق وبيده أزِمّة التحقيق: لا يخفى أن طرق اطّلاع الخَلْق على أحوال من مضى وسلف من مناقبه ومثالبه وصلاحه وفساده وعلمه وجهله وهدايته وضلاله وعلوّ كعبه في مقامات القُرْب وتسفُّله متعدّدة كثيرة، منها النظر إلى مذهبه وطريقته وسيرته، إن كان صاحب مذهب وطريقة، ومنها مطالعة آثاره وتأليفاته إن كان صاحب أثر وتأليف كما قيل: **شعر:**

إن آثارنا تدلّ علينا　　　فانظروا بعدنا إلى الآثار

ومنها المراجعة إلى أقوال من تكلّموا في حقّه بالجرح والتعديل إذا كان صدور ذلك عنهم بالإنصاف عاريًا عن الأغراض الفاسدة والاعتساف، فأنا بحول الله تعالى وقوّته أذكر كل ذلك على حِدَة بعنوان المنظرة.

فالمنظرة الأولى في ذكر نسبه الشريف إجمالاً وما وقع في حقّه من البشارة قبل ولادته. أما نسبه الشريف، فهو قُدِّس سرّه سيّدنا وسندنا وولي نعمتنا الإمام الربّاني المجدّد والمُنوِّر للألف الثاني مولانا الشيخ أحمد بن الشيخ عبد الأحد بن الشيخ زين العابدين بن الشيخ عبد الحي بن الشيخ محمد بن الشيخ حبيب الله بن الإمام رفيع الدين بن الخواجة نور بن الخواجة نصير الدين بن الخواجة سليمان بن الخواجة يوسف بن الخواجة عبد الله بن الخواجة إسحٰق بن الخواجة عبد الله بن الخواجة شُعَيْب بن الخواجة أحمد بن الخواجة يوسف بن الخواجة شهاب الدين المعروف بفرخشاه الكابلي بن الخواجة نصير الدين بن الخواجة محمود بن الخواجة سليمان بن الخواجة مسعود بن الخواجة عبد الله الواعظ الأصغر بن الخواجة عبد الله الواعظ الأكبر بن الخواجة أبي الفتح بن الخواجة إسحٰق بن الخواجة إبراهيم بن الخواجة ناصر ابن سيّدنا عبد الله ابن سيدنا أمير المؤمنين عمر الفاروق رضي الله عنهما وعنهم أجمعين، وكان آباؤه الكِرَام وأجداده العِظَام كلُّهم من أكابر العلماء الأعلام وصُلَحاء فُضلاء الأنام.

وأما البشارة الحاصلة في حقّه قبل وجوده، فاعلم أن أمر البشارة أغلبه مبنيّ على الظن الغالب، فإنها لا تكون بأنّ شخصًا اسمه فلان واسم أبيه فلان وحليته كذا وقبيلته كذا يظهر في زمان كذا وفي مكان كذا، بل يذكر فيها جملة من سيرة المبشر به أو زمانه أو قبيلته، كالبشارة بوجود المهديّ رضي الله عنه، ولذا لا يزال يوجد مَن يدّعي أنه هو المهدي الموعود وليس كلّهم يدّعي ذلك بالكذب والباطل، بل لوجود بعض العلامات الواردة في حقّه فيه، وكالبشارة الواردة في حقّ الأئمّة المجتهدين مثل: «لو كان الدين في الثريّا لتناوله رجال»، وفي رواية: «رجل من أبناء فارس»[1]، ومثل: «يوشك أن يضرب الناس»، وفي

(1) رواه الإمام مسلم في صحيحه بلفظ: «لو كان الدين عند الثريا لذهب به رجل من فارس أو قال من أبناء فارس حتى يتناوله»؛ ورواه أحمد في المسند، حديث رقم (8067) [2/ 308]؛=

رواية: «يوشك الناس أن يضربوا أكباد الإبل يطلبون العلم فلا يجدون عالمًا أعلم»، وفي رواية: «أفقه من عالِم المدينة»[1]، ومثل: «لا تسبُّوا قريشًا فإن عالمها يملأ طِباق الأرض علمًا»[2]؛ فإن المحقّقين أهل الإنصاف حملوا الأول على البشارة بوجود الإمام الأعظم أبي حنيفة، والثاني على البشارة بوجود إمام دار الهجرة مالك بن أنس، والثالث على البشارة بظهور الإمام الشافعي رضي الله عنهم أجمعين. وكل ذلك بحسب الظنّ الغالب حيث وُجِدت الأوصاف المذكورة فيهم، بل لا يُسْتبعد حصول اليقين بذلك للمحبّين والمُنْكِر المُعانِد الشقيّ لا يزيده ذلك إلّا إنكارًا وعنادًا واستكبارًا، كما أننا لا نزال نجد المتعصّبين إلى الآن يُنْكرون حمل الحديث الأوّل على البشارة بالإمام الأعظم رضي الله عنه، بل المتوغّل في الجهالة والمُتَنَكِّص على عقبيه في تيْه الضلالة لا يستنكف من التفوّه بالإنكار على وجود القائل بذلك، وهذا لا يضرّ إلّا نفسه، فإن القائل بذلك ليس من أتباع الإمام الأعظم رضي الله عنه فقط، بل المحقّقون من غيرهم كالسيوطي وابن حجر الهيتمي والشعراني مُصَرِّحون بذلك، فهذا المُنْكِر إن اطّلع على ذلك ومع هذا أنكر وجود القائل به، فهو مُعاند غَوِيّ سابح في بحر العناد والسفاهة، وإن لم يطلع فهو جاهل غبيّ خائض في تيّار الغفلة والجهالة، فحقّه أن يسكت ويأكل ويشرب وينهق مع ما ينهق دون أن ينعق بهذا الكلام ويسلم العلم لأهله، بل نقول: إن من الناس من يُنكر وجود المهدي مع ورود أحاديث كثيرة في حقّه، حتى قيل: إنها بلغت حدّ التواتر المعنوي، ولذا قيل: إن من أنكر المهدي فقد كفر.

وهذا كما أن أهل الكتابين يُنكرون وجود البشارة في كتبهم بوجود النبيّ ﷺ مع كونها ملآنة بها عند المؤمنين بيقين، فإذا عرفت هذا فاعلم أن الأمر في حق الإمام الربّاني رضي الله عنه أيضًا كذلك، فما وافقه قُدِّس سرّه

= ورواه غيرهما.

(1) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب العلم، حديث رقم (307) [1/ 168]؛ ورواه الترمذي في سننه (18 باب ما جاء في عالم المدينة) حديث رقم (2680) [5/ 47]؛ ورواه غيرهما.

(2) رواه الطيالسي في مسنده، عن عبد الله بن مسعود، حديث رقم (309) [1/ 39]؛ والشاشي في المسند، ما روى أبو الأحوص، حديث رقم (728) [2/ 169]؛ ورواه غيرهما.

بالقرائن حمله المُحِبّون عليه قُدّس سرّه بغلبة الظنّ، والمُنْكِر لا يزيده ذلك إلّا إنكارًا وعنادًا واستكبارًا، وتصديق المصدق نفعه راجع إليه، وكذا إنكار المنكر ضرره عائدٌ عليه، ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: الآية 7]، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة: الآيتان 7، 8]، والمؤمن يجب عليه حُسْن الظن بأيّ مؤمن كان إذا كان مستور الحال؛ فكيف بالأولياء الأخيار الذين صنّف في مناقبهم مجلّدات كبار، وملؤوا الدنيا بأنواع الآثار، ولم يزل أتباعهم قدوة خير الأمم في جميع الأقطار، ونوّروا الدنيا كلّها بأنوار المعارف كشمس النهار؟ والله الموفّق والمُعِين وهو الآخذ بنواصي الأخيار والأشرار.

البشارة الأولى: قوله ﷺ: «**يكون في أُمتي رجل يقال له صلة يُدْخِل الجنّة بشفاعته كذا وكذا**»(1)، أورده الإمام السيوطي في جمع الجوامع، ووجه حمل هذا الحديث عليه أنه قُدّس سرّه لما طبّق طريقة الصوفية القائلين بوحدة الوجود على الشريعة الغرّاء تطبيقًا شافيًا وبيّنها بيانًا وافيًا في بعض مكاتيبه، قال في آخره: الحمد لله الذي جعلني صلة بين البحرين، ومُصْلِحًا بين الفئتين، واشتهر بهذا اللّقب فيما بين أصحابه، ولهم اطّلاع على الحديث المذكور، ولم يروا أحدًا حمله على أحد على ممرّ الدهور، ورأوا في الإمام رضي الله عنه لياقة بتلك المنقبة الشريفة مع ما سمعوا منه قُدّس سرّه مرارًا بأن النبيّ ﷺ بشّره في بعض الحضرات والوقائع بشفاعة كذا وكذا، فحملوا الحديث المذكور عليه قُدّس سرّه، وأي استبعاد في ذلك وأيّ محذور فيما هنالك، بل هذا الوصف أظهر فيه قُدّس سرّه من الشمس وأبْيَن من الأمس، فإن صحّ هذا الحمل فيها وإلّا فلا يُلام أحد على حسن ظنٍّ بوليٍّ من الأولياء العِظام رضي الله عنهم أجمعين. شعر:

زعم المُنجّم والطبيب كلاهما ... لا تُحشر الأجساد قلت إليكما
إن صحّ قولكما فلست بخاسرٍ ... أو صحّ قولي فالخسار عليكما

---

(1) رواه ابن المبارك في الزهد، حديث رقم (864) [1/ 297]؛ والذهبي في سِيَر أعلام النبلاء، ترجمة (ابن أشيم) [3/ 495]؛ ورواه غيرهما.

قال شيخنا قُدِّس سره في هامش المناقب الأحمدية بعد ذكر الحديث المذكور: قد راجعت النسخ القديمة من جمع الجوامع للسيوطي وتبويبه كنز العمّال لعلي المتقي، فوجدت الحديث فيها كذلك مطلقًا، ثم اطّلعت على الخصائص الكبرى للسيوطي فوجدته هناك بلفظ صلة بن أشيم مقيَّدًا، فإن كانت هذه الزيادة من الرُّواة أو النُّسَّاخ، فالاحتمال باقٍ، وإن كان من تشعّب طرق الحديث فلا مجال لأحد في الكلام، وهُمْ ـ يعني أصحاب الإمام رضي الله عنه ـ لعدم الاطّلاع عليها غير مَلُومين، وقد وقع مثل ذلك لكثير من الشرّاح فتنبّه. اهـ. بتغيير يسير.

البشارة الثانية: ما نُقِل عن شيخ الإسلام أحمد الجامي روَّح الله روحه ونوَّر ضريحه قال مولانا الجامي قُدِّس سرّه في نفحات الأُنس ما خلاصة معربه: قيل لشيخ الإسلام أحمد الجامي قُدِّس سرّه: إنّا قد اطّلعنا على مقامات المشائخ ووقفنا على ما صدر عنهم من الحالات والكرامات ولا نعرف واحدًا منهم ظهر منه مثل ما صدر عنك من الحالات، فقال: ما من رياضة فعلها وليّ من الأولياء إلّا وقد فعلت جميعها وقت الرياضة وزِدْتُ عليها أيضًا، فكل حال من الأحوال، وكل كيفية من الكيفيات أعطاها الحقّ سبحانه أولياءه متفرّقة أعطاها أحمد ـ يعني نفسه ـ بفضله وكرمه مجتمعة، وإذا ظهر في كل أربعمائة سنة شخص اسمه أحمد يكون آثار عناياته تعالى في حقّه أيضًا مثل ذلك يراه جميع الخَلْق. اهـ.

وبَيْن وفاة الشيخ أحمد الجامي وولادة الإمام الربّاني قُدِّس سرّهما أربعمائة وخمس وثلاثون سنة، وحيث لم يظهر بينهما من الأولياء أحد بهذا الاسم وبتلك الأوصاف حملوا كلام الشيخ على الإمام رضي الله عنهما بموجب غَلَبَة الظن، وقد تأيّد هذا بما وقع في بعض مقامات شيخ الإسلام أحمد الجامي قُدِّس سرّه، حيث قال فيها: قال ـ يعني الشيخ ـ: يظهر من بعدي سبعة عشر نفرًا مثلي كل منهم يسمّى باسمي وآخرهم يظهر بعد الألف، ويكون هو أكبرهم وأعظمهم، والله سبحانه أعلم.

البشارة الثالثة: ما نُقِل عن الشيخ خليل البدخشي قُدِّس سرّه، نُقِل عنه أنه قال: سيظهر في سلسلة خواجكان قَدَّس الله أسرارهم شخص كامل من الهند يكون عديم النظير في عصره، ويا أسفي على أني لا أدرك زمانه. اهـ.

وحيث إنه لم يظهر في الهند أحد في طريقة خواجكان ظهور الإمام الربّاني حمل عليه بالضرورة، والله سبحانه أعلم. وفي هذا القدر كفاية للمسترشد والله سبحانه الموفّق.

المنظرة الثانية في ولادته ونشأته قُدّس سرُه: وُلِد قُدّس سرّه سنة 971 إحدى وسبعين وتسعمائة في بلدة سهرند ـ بكسر السين المهملة وسكون الهاء وكسر الراء وسكون النون والدال المهملة ـ كذا ضبطه في سبحة المرجان، وقال فيها: إنها بلدة عظيمة بين دهلي ولاهور على الشارع. اهـ.

وقال في الروضة القيّومية: إن محل بلدة سرهند كان أولاً غابة مَهُولة مملوءة بالسباع، وكان اسمها بالهندية سيهرند، يعني غابة الأسود، فإن سيه بالهندية الأسد، ورند الغابة، ولهذا يكتب في ضرب السكة سيهرند، وكان أول بنائها في عهد السلطان فيروز شاه، وأوّل من توطّن بها الإمام رفيع الدين المذكور الجدّ السادس للإمام الربّاني قُدّس سرّه، فسُمّيت البلدة بهذا الاسم واشتهرت به. اهـ.

يعني أن اسمها طابَقها ظاهرًا وباطنًا، فإنها لو كانت أوّلاً غابة الأسود الظاهرة، فقد صارت بعد غابة أسود عالم الحقيقة والمعاني، وأفاد أن استعمال هذا الاسم على الأصل مخصوص بالسكة، وهو كذلك فإنه لا يستعمل إلّا بتقديم الراء على الهاء وإسكانها، أو بحذف الياء وفتح الراء هكذا سهرند، واستخرجوا تاريخ ولادته من لفظ خاشع 971، وعُرِض له قُدّس سره بعد أيام من ولادته ما يعرض على الصبيان من المرض، فجاء به والده شيخه شاه كمال الكيهتلي القادري فقال له شيخه: لا تخف إنه يكون ذا عمر طويل وصاحب أحوال سَنِيّة وأخذه من يده بكمال الجَذْبة وجعل لسانه في فيه، فأفاض عليه وقتئذ فُيُوض النسبة القادرية من لسانه، فنشأ في حجر تربية والده محلى بدُرَر الأدب وأخذ عنه مبادىء كتب العرب وحفظ في صغر سنه القرآن وأسكت بتحبير صوته سواجع البستان، واستظهر عدّة من المُتُون في أنواع العلوم مع إتقان المنطوق منها والمفهوم، ثم رحل إلى سيالكوت فقرأ هناك على مولانا كمال الدين الكشميري بعض كتب المعقولات في غاية التحقيق والتدقيق.

وكان المذكور من فحول علماء عصره صاحب تحقيق وتدقيق متصفًا بالورع والتقوى، وكان له شرب تامّ من مواجيد القوم أيضًا، وهو أستاذ مولانا عبد الحكيم السيالكوني، وأخذ الحديث عن مولانا يعقوب الكشميري الصرفي، وكان هو من كبار مُحَقِّقي زمانه، وقد أخذ الحديث في الحرمين المحترمين من كبار المحدثين؛ كابن حجر المكّي، وعبد الرحمٰن بن فهد المكي، وكان من خلفاء مولانا حسين الخوارزمي الكبروي، قيل: إنه بايعه في السلسلة الكبرويّة وأخذ هذه الطريقة بواسطته وحصل إجازة كتب الحديث والتفسير وبعض كتب الأصول؛ كالتفاسير الثلاثة للواحدي، وأسباب النزول وتفسير البيضاوي وسائر مؤلفاته كمنهاج الوصول والغاية القصوى وغيرهما، وكالجامع الصحيح للبخاري مع جميع مؤلفاته الأُخر، وكالمشكاة وشمائل الترمذي والجامع الصغير للسيوطي وغير ذلك من العالم الربّاني القاضي بهلول البدخشاني، وأخذ عنه أيضًا المسلسل بالأولية: «الراحمون يرحمهم الرحمٰن تبارك وتعالى، ارحموا مَنْ في الأرض يرحمكم مَن في السماء»[1].

وقد أخذ القاضي المذكور الحديث من كبار علماء الحرمين المحترمين؛ كالعلّامة المحدّث عبد الرحمٰن بن فهد المكي، ولم يبلغ من العمر سبعة عشر سنة إلّا وقد فرغ من تحصيل العلوم المدرسية وتحقيقها وتشييد بنيان مولويّته بأحكام المعقول والمنقول والفروع والأصول وتدقيقها، وقد استفاد في أثناء تحصيله الطريقة القادرية والشِّشتية من والده الماجد، فأجازه في هذين الطريقين، وشهد له بحصول أنوار الفريقين، فاشتغل في حياة والده الماجد بدرس العلوم الظاهرية للطالبين وتعليم الطريقة أيضًا للسالكين، وصنّف في تلك الأثناء بعض الرسائل؛ كالرسالة التهليلية ورسالة ردّ الروافض ورسالة إثبات النبوّة، وكان له يدٌ طُولَى في العلوم الأدبية، وكان من الفصاحة والبلاغة وسرعة الاستحضار وشدّة الذكاء والفِطْنة بجانب عظيم ومكان مكين، روي أنه قُدّس سرّه أتى مرة في تلك الأثناء منزل أبي الفيض العلامي الشيعي المتخلص بالفيضي، وكان المذكور وقتئذ مشتغلاً بتصنيف تفسير بكلمات غير منقوطة،

---

(1) رواه الترمذي في سننه، باب ما جاء في رحمة المسلمين، حديث رقم (1924) [4/ 323]؛ وأبو داود في سننه (66 باب في الرحمة) [4/ 285]؛ ورواه غيرهما.

وفي معاونته في الأمر المذكور عدة من العلماء المتبحّرين؛ كمولانا جمال الدين التاوي وغيره، فلمّا رآه الفيضي سُرّ به، وقال: قد سُدّ علينا الآن أبواب الكلام وتعسّر الإتيان بعبارات غير معجمة تفصح عن المرام، والتمس منه أن يحرّر بعض عبارات النوع المذكور يناسب المقام، فأخذ القلم في الحال وشرع في التحرير من غير تفكّر بالبال، وكتب أشياء كثيرة من النوع المذكور بعبارات أنيقة مع كمال البسط في المقال، فتحيّر من كمال فصاحته وبلاغته وسرعة استحضاره وبداهته الفحول من الرجال، واتّفقت كلمتهم على أنه مؤيّد من عند المبدأ الفيّاض المُتعال، فصار الفيضي بعد ذلك كلما استعصاه الكلام في إفادة المرام يستمدّ من بحره الزاخر حتى أنهاه على الوجه المذكور إلى الآخر، وكان ذلك قبل ملاقاته الخواجة محمد الباقي بالله قُدّس سرّه.

المنظرة الثالثة في استفادته الطريقة النقشبندية من شيخه الخواجة محمد الباقي بالله قُدّس سرّه وبلوغه فيها مرتبة الكمال والتكميل ووصوله إلى ما يعجز عن إدراكه العقل العقيل وتنويره بنور الطريقة العالم من العلماء الفضلاء وأرباب التاج والتخت[1] والإكليل.

اعلم أنه قُدّس سرّه مع وجود هذه الكمالات والفضائل كان عطشان القلب خصوصًا للطريقة النقشبندية، وكان قد طالع بعض الرسائل المؤلّفة فيها، وكان كثير الاشتياق لملاقاة واحد من أربابها، ولما توفي والده الماجد عام غز خرج بعد سنة من وفاته من منزله بنيّة أداء الحجّ، ولما دخل بلدة دهلي كرسي سلطنة بلاد الهند، ووصل هناك إلى صحبة شيخه الشيخ محمد الباقي بالله قُدّس سرّه بدلالة بعض أصحابه جذبته جذبات العناية الأزليّة ودلّته إلى الدولة السرمدية وأنشده لسان السعادة الأبدية هذه الأشعار الحُكْمية: **أشعار**:

يا مَن يروم طواف البيت بالجسد ... والجسم في بلد والروح في بلد
ماذا تروم وماذا أنت فاعله ... مُبَهْرجًا في التُقى للواحد الصَمد
إن الطواف بلا قلب ولا بصر ... على الحقيقة لا يُشْفي من الكمد

(1) التَخْت: وِعاء تُصان فيه الثياب، فارسي وقد تكلمت به العرب. (لسان العرب). وفي اللهجة العاميّة التخت هو السرير، ولعل هذا المعنى هو المقصود.

آخــــر:

بدل طوافك بالمطاف بلا صفا بطواف حضرة كعبة الآمال

فتنبّه على تلك الدقيقة وانكشف له ما لم ينكشف قبل من الحقيقة، فاستعمل أفكاره الألمعيّة، واستنسب أن يُؤخّر ما في قلبه من النيّة حيث لم تكن نيّته على سبيل الفرضية، بل كانت لمجرد الأشواق القلبية، فبايعه بعد يومين من ملاقاته في الطريقة النقشبندية العَليّة ولازم صحبته السَّنيّة ورجح طلب صاحب البيت على طلب البيت، وترنّم لسان حاله بهذا البيت:

إليك يا منيتي حجي ومُعْتَمري إن حجَّ قوم إلى تُرْبٍ وأحجار

وجدَّ في الطلب لمقتضى استعداده العالي ولم يضيِّع دقيقة بلعلّ وليت، وتفرّس فيه شيخه المذكور كمال القابلية وعلوّ الفطرة وسموّ الاستعداد، بل وجد فيه جميع الأوصاف التي كان مبشّرًا بوصول الموصوف بها إليه وتحقّق أنه هو هذا الشخص المُبَشَّر بلقائه وارث كمالاته والزيادة عليه، فبذل في حقّه أنواع الالتفات وأصناف العنايات وبلغه بقوّة جذبه بفضله سبحانه وتعالى من الكمالات إلى أقصى الغايات، وظهر له ببركة توجّهاته السَّنيّة المصادفة لمحلّها في مدّة يسيرة من الحالات ما لا يظهر لغيره عشر عشيره في عدة من السنوات، فبعد مضيّ شهرين وعدّة أيام على هذا الحال، وحصول غاية السعي وبذل المجهود من الطرفين بهذا المنول أجازه شيخه في الطريقة المذكورة إجازة مُطْلقة تامّة وأمره بالرجوع إلى وطنه وإفاضته الفُيُوضات إلى قلوب العامّة، وأحال تربية كثير من مُريديه عليه وضمّهم وقت انصرافه إلى وطنه إليه، فجلس بعد عوده إلى بلده على مسند الإرشاد ودِسْت[1] الإفادة وشرع في هداية الطالبين وتربية السالكين بكمال النشاط في الإرشاد والإفاضة، فاجتمع لديه كثير من المستعدّين حتى صار شيخه بُعَيْد ذلك يستفيد منه الفيوضات الجديدة كسائر المستفيدين، وليس هذا كلامًا صادرًا على سبيل المبالغة والإطراء، بل أمرٌ واقع مشهور عند أربابه بلا امتراء، وطار صيت إرشاده في أيام قلائل مسير القطا والأمطار

(1) الدَّسْت: الأرض. طلع فيها النبات. والدَّست من الثياب والورق وصدر البيت. (القاموس المحيط).

وانتشرت كمالاته وقوّة إفاضته في سائر الأقطار، فتهافت عليه العلماء والفضلاء والكُمَلاء والأُمراء من جميع الديار لاقتباس الأنوار، فبذل لهم أنواع العنايات حسب الاقتدار وشمّر عن ساق الجدّ في إحياء الشريعة المُحَمّدية وتحزّم في إعادة أنوار السُنن النبويّة، وانتصب لإقامة شعائر الطريقة الأحمديّة، وكان يُحرّض أصحابه كلّهم بالتمسك بعروة الشريعة العليّة وإحياء السنة النبوية السَّنِيَّة والعمل بما فيها، والاجتناب عن كلّ ما ينافيها، كما هو أساس الطريقة النقشبندية، وكان يحثّ على ذلك أمراء عصره وحُكّام دهره بواسطة مكاتيب عديدة حتى استنارت أقطار الهند وما يليها بنور السُّنّة وعادت الشريعة المحمدية بعد أن كادت تعوجّ مستقيمة سديدة، وقد نشأ في حجر تربية خلفاء علماء أجلّاء وكُمَلاء فُضلاء أدلّاء، كلٌ واحدٍ منهم رافع رايات العلوم وألوية الولاية وجامع أشتات الفنون وناصب بنودها رواية ودراية، فقام هؤلاء الكرام، وكذا أولاده العظام بعده بنشر طريقته العليّة وبثّ سيرته السَّنيّة بين الخاص والعام حتى انتشرت أنوار فَيْضه في أسرع الأوقات إلى أطراف العالم وعمّت أسرار فضله مَنْ أدركته العناية الأزليّة من بني آدم، ولا زالت إلى يومنا هذا تتزايد يومًا فيومًا بواسطة خلفاء خلفائه وأولاد أولادهم وهلمّ جرًّا بحيث لم تبقَ مملكة من ممالك الإسلام إلّا وفيها من ينوّرها بطريقته من الأعلام بفضل الله الملك العلّام ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

المنظرة الرابعة: في بيان من أثنى عليه من مُعاصريه وشهد له بأنه مُجَدِّد الألف الثاني، فأول من أثنى عليه شيخه الخواجة محمد الباقي بالله، وقد تقدّم أنه صار يستفيد منه كبعض المستفيدين، وذلك فإن الإمام قُدّس سرّه وإن كان استفاد من شيخه المذكور الطريقة النقشبندية، إلّا أنّ الحق سبحانه منحه أعلى من ذلك وأزيد مما هنالك، كما بيّن ذلك في بعض مكاتيبه، ولهذا سُمّيت الطريقة الخاصة به الطريقة المجدّدية، فكان شيخه يستفيد منه تلك الطريقة الخاصة به، وكان يُعظّمه تعظيم المريد شيخه حتى نُقِل: أنه أتى حجرته وقتًا من الأوقات فصادفه في الاستغراق فأراد الخادم إخباره بمجيئه فمنعه وردّ الباب بهينة ورجع يمشي الهُوَيْنا خوفًا من انقطاع استغراقه، وقعد خارج الحجرة إلى أن قام الإمام وسأل: مَن بالباب؟ فقال: الفقير محمد الباقي، فخرج مسرعًا

وقام بكمال الأدب والتواضع وقد بشّره ببشائر كثيرة رآها في وقائعه وكتب يمدحه بعلوّ الاستعداد وكمال القابلية إلى بعض أحبّائه ووصّى جميع مريديه وقت موته باتّباعه.

نُقِل عن المير محمد نعمان الذي هو من أعاظم أصحاب الخواجة محمد الباقي، ومن أكابر السادات: أن الخواجة لما خصّصه بعد التعميم باتّباع الإمام قال له على سبيل التحرّج والاستنكاف من اتّباعه: إن توجه قبلة الفقير ليس إلّا جنابكم، فقال له الخواجة بالخشونة: ما تظنّ أنت في الشيخ أحمد، فإنّ ألوفًا من النجوم أمثالنا تتلاشى وتضمحلّ في أشعة أنوار شمسه.اهـ. فلو لم يوجد في حقّه قُدّس سرّه إلّا هذه الشهادة الصادقة من شيخه لكَفَتْ دليلاً على فضله الشامخ وقدمه الراسخ، فكيف إذا وُجِد غيرها من شيخه ومن كُمّلاء مشائخ عصره وفُضلاء علماء دهره؟ أمّا ما صدر من شيخه في مدحه، فلنثبت هنا بعضًا منه للاستشهاد:

فمنها ما كتبه إلى بعض أحبّائه من كبار وقته بهذا العنوان في أوائل وصوله إلى صحبته: إن رجلاً من سهرند يُسمّى الشيخ أحمد كثير العلم قويّ العمل، وقد صحبه الفقير أيامًا وشاهد من أحواله عجائب كثيرة يشبه أن يكون شمسًا يتنوّر العالم منه، الحمد لله قد حصل لي اليقين بأحواله الكاملة وله أقرباء وإخوة كلّهم من صُلَحاء الرجال ومن طبقة العلماء، وصحب الداعي عدة منهم ووجدهم من الجواهر العالية، ولهم استعدادات عجيبة، وللشيخ المذكور أولاد وأطفال كلهم أسرار إلٰهيّة، وبالجملة: إنه شجرة طيّبة أنبته الله نباتًا حسنًا.

ومنها ما بشّره به مشافهة مرارًا بأنه قطب الوقت وقطب الأقطاب الذي رآه في المنام عند إجازة شيخه الخواجكي الأمكنكي ووقت نزوله في بلدة سهرند مرارًا كثيرة وهي مشهورة، وفي ذيل تعريب الرشحات لجامع هذه الحروف وغيره أيضًا مسطورة.

ومنها ما قال في حقّه أيضًا: إني قد تشيّخت في هذه السنين الثلاثة أو الأربعة ولعبت أيامًا، الحمد لله لم يكن لعبي هذا وفتحي هذا الدكان بلا فائدة، حيث ظهر مثله في عرصة الوجود.

ومنها ما قال: إني جئت بهذا البذر من بخارى وسمرقند وزرعته في أرض الهند الكثيرة البركة، وكان سعينا واجتهادنا في تربية الطالبين إلى أن تبلغ معاملته إلى انتهائها، ولما فرغت من أمره جررت نفسي من المشيخة وأحلت الطلاب عليه.

ومنها ما كتب إليه يبلغ الله تعالى إلى مرتبة الكمال والإكمال.

وللأرض من كأس الكرام نصيب

لا تَكَلُّف، وما هو حقيقة الحال يُكتب، قال الشيخ الأنصاري: أنا مريد الخرقاني، ولكن لو كان الخرقاني في هذا الوقت لكان مريدًا لي مع كونه شيخي، فإذا كانت صفة هؤلاء الذين تخلّصوا عن الصفة هكذا، فلم لا يبذل أسارى آثار الصفات أرواحهم في لوازم الطلب، ولِمَ لا يتوجّهون إلى مكان وصل منه إلى مشامّ أرواحهم رائحة المطلوب وتوقّفنا وإهمالنا الآن ليس من جهة الاستغناء وعدم المبالاة، بل ننتظر الإشارة. شعر:

إذا ما أراد الطمع مني منبتي لقلت على رأس القناعة أحجار

هذا هو حقيقة الحال التي تحرّر يهدينا الله سبحانه لما هو المهمّ ويُخَلّصنا من العجب والغرور وبقيّة المقصود أن جناب معدن السيادة المير صالح النيسابوري سلّمه الله قد أظهر الطلب، وحيث كان الوقت غير مقتضٍ لهذا لم يرَ تضييع أوقاته من مقتضى الإسلامية؛ فلا جرم أرسلناه إلى صحبتكم يصير إن شاء الله تعالى محظوظًا على قدر استعداده ويجد تمام اللطف وكمال التوجّه.

ومنها ما كتبه أيضًا يبلغ الله سبحانه الفقراء والمساكين العاجزين ببركات الأولياء المنتخبين إلى مقاصدهم: منذ مدّة لم يصدر مني عرض الخلوص على ديوان ملجأ الولاية. نعم يمكن أن تجعل هذه الكلمة الواحدة قاصدًا لجناب صادق الحال، الحمد لله بتصوّر هذا القسم وماذا أكتب غيره، فإن تحرير كلمات الدراويش إلى حضرتكم من غاية عدم الحياء وحكاية الأوضاع الصورية لا مناسبة لها أصلاً، والحاصل ينبغي لنا أن نعرف حدّنا وأن نحترز من الفضول والمطلوب الدعاء.

ومنها ما كتبه إليه أيضًا ليكن مسند الأرشد أوسع وأنور: إن مسودّة الرسالة التي في طريقة خواجكان جعلها الخواجة برهان كحل البُسْر[1] للمشتاقين الحمد لله أنها عالية جدًا ولطيفة، ولكن ربما يخطر في البال التماس تفتيش أحوال حضرة الخواجة أحرار قليلاً لعله يظهر أمور أُخر أيضًا، ولما تشرّفت بمطالعة تلك اللطيفة الغيبية في ذاك اليوم خطر خاطر في أثناء النعاس أن طرف اليسار، أعني عالم الأرواح يتعلق به فلما حضرت حصل التردد من جهة ضعف الحافظة أنه من كان المشار إليه، ولكن الظنّ الغالب أن الإشارة كانت إلى حضرة الخواجة أحرار قُدّس سرّه لا بدّ يرى ذلك في طبقات واحد من الأئمّة يمكن أن يظهر شيء.

وأيضًا يُفْهم من كلماته معنى العصمة.

وأيضًا يظهر في بعض المنامات أنه خُلِق في أصل الخلقة مندرج النهاية في البداية. ما العجب أنه لو كان مخلوقًا في القابلية المطلقة التي هي فوق نقطة العلم وتحت مقام الوحدة نرجو أن تبصر هناك أيضًا.

وأيضًا نرجو أن تنظر إلى مقام الفاروق رضي الله عنه أنه دخل المقام المذكور على طريق النزول أو جاء من طريق آخر، ولعلّ المخلوقية فوق النقطة صارت سببًا لعدم التقرّب من ذاك المقام نرجو التفتيش والعناية والخاطر منتظر جدًا.

والتماس آخر نرجو التوجه أيضًا في باب فناء البشرية أن له مقامًا في غير مقام الفناء في الله، أو أنه منحصر في الدخول في هذا المقام والجماعة الذين يظهرون أنهم مخلوقون فوق هذا المقام الظاهر أنهم محفوظون هكذا، ولا حاجة لهم إلى تجشم الكسب في ظهور فناء البشرية.

وأيضًا إن الذين فنوا وانمحوا تحت مقام الوحدة وإن ساروا من طريق الجَذْبة قيوميّة أو غيرها أيضًا محفوظون من العود إلى وجود البشرية.

---

(1) البُسْر: أوله طلع، ثم خلال ثم بلح، ثم رطب، ثم تمر، الواحدة بُسْرة والجمع بسرات، وأبْسَر النخل: صار ما عليه بسرًا. (الصحاح للجواهري).

وأيضًا نرجو النظر إلى بيت الجبروت الذي هو مقام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ينبغي أن يكون هناك أيضًا مقام يجعل أمينًا من العود المذكور.

وأيضًا نرجو إجالة النظر في مقام الفناء في الله، لعلّ له طريقًا آخر غير هذا الطريق الظاهر بالتفصيل، ولعلّ بعض الأعزّة دخلوا من ذلك الطريق وبقيّة الأحوال المتفوقة معلومة له كما ينبغي وأسامي مقامات كثيرة وعلاماتها غير معلومة لنا، فكيف يمكن أن نكتب التعبيرات إن شاء الله يكون ما هو المرضي والسلام على محمد صادق وجميع الإخوان والأعزّة.اهـ. وبهذه الفقرة الأخيرة يُعْلَم عُلُوّ المقامات المحمدية الخاصة به.

ومنها ما كتبه في أواخر عرائضه التي كان أرسلها إليه لبيان أحواله وهي مندرجة في أول الجلد الأول من المكتوبات وما ذُكِر من الكشوف طريقة مرضيّ جدًا، وصحيح ومستقيم ومستحسن حيث ينكشف أشياء بلا قول ولسان ولا حاجة إلى بيان جميع الوجوه وما يلزم بيانه بين وقت الملاقاة هذا شهادة شيخ ومدحه.

وأما غيره، فهم كثيرون لا يُعْلَم عددهم إلّا الله. وأما الكُبَراء منهم المشار إليهم بالبنان، فكالشيخ فضل الله البرهانفوري ومولانا حسن الغوثي ومولانا عبد الحكيم السيالكوتي ومولانا جمال الدين التاوي ومولانا يعقوب الصرفي شيخه ومولانا حسن القباداني ومولانا ميركشاه ومولانا مير مؤمن البلخيين ومولانا جان محمد اللاهوري ومولانا عبد السلام الديوكي والشيخ عبد الحقّ المحدث الدهلوي في آخر أمره بعد أن ضيع في مخالفته برهة من عمره وغيرهم من فضلاء دهره وكُمَلاء عصره، كل أولئك أثنى عليه بما هو أهله وردّ على مَن أساء الأدب في حقّه، وتكلّم بما لا يليق بشأنه، وكلهم كانوا يتهافتون على معارفه ويستروحون بعوارفه.

أما الشيخ فضل الله البرهانفوري، فقد نُقِل عنه نقلاً صحيحًا أنه كان يبتهج بسماع أوصافه الجميلة ويلتذّ باستماع معارفه الجليلة ويقول: إن كلّ ما يقوله قطب الأقطاب ـ يعني الإمام قُدِّس سرّه ـ ويكتبه من أسرار الحقيقة صحيح وأصيل وهو صادق فيه ومتحقّق به وعلامة صدق المقال وعلوّ الحال هي الاتّباع

على وجه الكمال ولي إخلاص تامّ وحبّ عام لجنابه من ظهر الغيب، قال ذلك بعد أن ذكر عنده بعض أوصاف الإمام قُدّس سرّه وكمال اتباعه للسنّة السّنيّة، ولهذا لمّا حُبِس الإمام على ما سيذكر جعل الشيخ المذكور الدعاء بخلاصه وردًا لنفسه بعد أوقات الصلوات الخمس، وكلما أتاه أحد من طرف سهرند للإنابة والاسترشاد كان يقول له: والعجب أنك تسكن في جواره ـ يعني الإمام ـ وتكون مريدًا لمحل آخر وتتركون الشمس وتستضيئون بالنجوم.

وأما الشيخ حسن الغوثي، فقد كان يُثْني عليه بما هو أهله ويمدحه بما يليق بعلوّ مقامه.

وأما مولانا عبد الحكيم السيالكوتي، فقد كان يُعَظِّمه تعظيمًا بليغًا يليق بمثله من مثله ويشنع على المنكرين بأشد التشنيع ويقرّ بكونه مجدّد الألف الثاني، ويكتب هذا الوصف في مكاتيبه المرسلة إليه، بل قيل إنه أول من أطلق هذا الوصف عليه ونقل عنه هذه العبارة في ردّ شبهة بعض المخالفين أن القدح في كلام الكُبَراء من غير فهم مرادهم جهل، وليس له نتيجة حسنة فرد كلام ملجأ المشيخة ومعدن العرفان الشيخ أحمد من الجهل وعدم الفهم كتبه الفقير عبد الحكيم، وقد ثبت بنقل الثقات أنه دخل في قيد إرادة الإمام قُدّس سرّه وهو الظنّ به.

أتى سهرند واحد من مريدي الشيخ مير محمد مؤمن البلخي بنيّة الإنابة والتوبة والسلوك على يد الإمام الربّاني قُدّس سرّه، وبلغ سلام كل من شيخه المذكور والسيد ميركشاه والشيخ حسن القباداني وقاضي القضاة تولك، ثم قال: إن شيخي مير محمد مؤمن الكبروي يقول: لو لم يمنعني كبر السنّ وبُعْد المسافة لأوصلت نفسي إلى ملازمته، وأفنيت بقية عمري في خدمته، واقتبست من أنوار أحواله ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت، وحيث إن هذه الموانع موجودة فالمأمول أن يَعُد هذا المهجور الصوري والحاضر المعنوي من مخلصيه الحاضرين، وأن يكون متوجّهًا إلى أحواله بالتوجّهات الغائبية وإفاضات الأنوار القدسية، وقال: إنه أمرني بمبايعتكم نيابة عنه، فقام وبايعه عنه ثم قال وقت انصرافه: إن الأعزّة هناك يلتمسون أن ترسل إليهم بعض المكاتيب المشتملة على الحقائق العالية، فكتب الإمام قُدّس سرّه المكتوب

التاسع والتسعين وأرسله إليه مع بعض المكاتيب المشتملة للمعارف السامية، ونقل عن بعض الأعزّة الذي جاء الهند من بلخ أنه قال: لما وصل المكتوب المذكور إلى المير المشار إليه وطالعه قام ورقص من كمال البهجة والسرور، وقال: لو كان سلطان العارفين وسيّد الطائفة وأمثالهما أحياء في الوقت لكانوا في خدمته. اهـ.

ونُقِل مثل ذلك عن بعض محقّقي ذلك الوقت الذي كان في صحبته كثير من العُرَفاء والعلماء وكان له اطّلاع تامّ على كلمات القوم وأحوالهم، حيث قال حين سمع خرافات بعض المعاندين عن الحق: إن مزاج أهل الزمان ليس لائقًا لإدراك دقائق حقائق هذا العزيز، فلو كان في أيام السلف لعرفوا قدره ومرتبته ودرجة كلامه ولأورد المتأخرون كلماته في كتبهم للاستدلال بها والاستشهاد وفطرة أرباب العصر في إدراك كلماته كفطرة سائر الجُهَلاء في إدراك حكم الحكماء. اهـ.

وقال واحد من العلماء العاملين المتورّعين ومن المُقْتدى بهم في ذلك العصر في بيان تصانيفه: إن كتب القوم ورسائلهم إما تصنيف أو تأليف، والتصنيف أن يُحَرِّر الشخص ما هو حاصله من العلوم والأسرار والنكات والمقامات والتأليف أن يجمع الشخص كلمات غيره بترتيب جيّد، وقد مضت مدّة مديدة من ارتفاع التصنيف من العالم، وإنما بقي التأليف فقط، وأنا وإن لم أكن من مريديه ولكن الحقّ والإنصاف أن مكاتيبه ورسائله الواقعة في هذا الزمان الأخير تصنيفات لا تأليفات، فإني كلّما أمعنت النظر فيها لا أرى فيها نقلاً عن الغير إلّا على الندرة والضرورة وعامتها مكشوفاته ومُلْهِماته الخاصة به وكلّها عالية مقبولة مستحسنة وموافقة للشريعة الغرّاء. اهـ.

وقال واحد من أقضى قضاة العصر المذكور في جواب من سُئِل عنه قُدِّس سرّه: إن الأحوال الباطنية المنسوبة لهذه الطائفة العليّة خارجة عن إدراكنا، ولكن الذي أعرفه أن أطواره وأوضاعه ـ يعني الإمام قُدِّس سرّه ـ قد أورثتنا يقينًا جديدًا صادقًا في طور الأولياء المتقدّمين، فإنا كلما طالعنا في كتب السَلف ما صدر عن كُمّل المتقدمين من الرياضات العجيبة والطاعات الغريبة كان يخطر ببالنا لعل مريديهم كتبوها على سبيل المبالغة، ولما شاهدت أوضاعه وأطواره

زال عني تلك التردّدات كلها، بل ربما يخطر ببالي أن مُحَرِّري تلك الأحوال ربما فرّطوا فيها ولم يكتبوها بالتمام. اهـ.

وأما الشيخ عبد الحق المحدّث الدهلوي، فإنه وإن كتب في أوائل أمره بعض الاعتراضات على بعض معارفه بموجب البشرية ولوازم المعاصرة، إلّا أنه أدركته العناية الإلـٰهيّة في الآخر فتاب عمّا سلف تاب الله عليه وأظهر رجوعه ذلك في مكتوب كتبه إلى حسام الدين أحمد من خلفاء مولانا الخواجة محمد الباقي بالله قُدّس سرّه مضمونه أن صفاء باطن الفقير في هذه الأيام في حقّ الشيخ أحمد سلّمه الله تعالى متجاوز عن الحدّ لم يبق حجاب البشرية والغشاوة الجبلية في البَيْن، ولا أدري أن هذا من أين الإنصاف وحكم العقل مع قطع النظر عن رعاية إخوة الطريقة يقتضيان عدم مخالفة أمثال هؤلاء الأكابر، وأن لا يؤذى ويساء أشباه هؤلاء الأعزّة، وقد أحسّ في باطني بطريق الذوق والوجدان شيئًا يَكِلُّ اللسان عن تقريره، والله مُقَلِّب القلوب ومُبَدل الأحوال، ولعلّ أرباب الظاهر يستبعدون ذلك وأنا لا أدري ما الحال، وعلى أيّ مثال ومنوال، أهو كتب أيضًا على أولاده في مكتوب طويل عريض ما مضمونه: أن المسودّات التي كتبتها اعتراضًا على كلام الميان الشيخ أحمد سلّمه الله تعالى اغسلوا كلها بالماء، فإنّ الغبار الحاصل في الخاطر بالنسبة إليه قد تبدّل صفاء. اهـ.

ولا يخفى على النبيه من هذا أن اعتراضه أولاً إنما كان بموجب البشرية وهو كذلك، فإن كلام المنكرين كلّه من هذا القبيل إلّا أن الحق سبحانه يختصّ برحمته من يشاء وينجيه من هاوية الإنكار ويؤويه إلى جنّة التصديق بأوليائه، ونِعْم دار القرار ويبقى البعض على ما هو فيه من نار الإنكار وبِئْس القرار، واخْتُلف في سبب رجوع الشيخ من إنكاره ظاهرًا، قيل: رأى النبيّ ﷺ في المنام وهو يوبّخه على إنكاره وقيل: تفاءل في حقّه بالقرآن العظيم فخرج، ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور: الآية 37]، وقيل: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم

بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ﴿٢٨﴾ [غافر: الآية 28]، وقيل: إنما كان اعتراضه عليه بحسب مكتوب مجعول عليه من طرف بعض أعدائه، فلما وقف على ذلك رجع وتاب واعتذر للإمام قُدِّس سرّه عمّا صدر فعذر وانقلب إلى الصفاء الكدر ولم يبق منه أثر ولا مانع من اجتماع كل ذلك، وحيث ثبت رجوعه عن ذلك علم أنه ممن أدركته العناية الإلـٰهيّة بأي طريق كان.

تنبيـــه:

قد تقدّم أنه أمر أولاده بغسل تلك المسودّات، والظاهر أنهم فعلوا ذلك، ومع ذلك نرى الآن أنه بقي منها بعض النقول حيث وقفنا على رسالة لبعض الفحول بالفارسية ردّها عليه ردًّا بليغًا كلمة كلمة وأجاب عن كل اعتراض بأجوبة شافية جزاه الله سبحانه خير الجزاء، وهو مولانا العلامة الشيخ وكيل أحمد السكندرفوري سلّمه الله سبحانه.

....

وبُح باسم مَن أهوى ودعني مِن الكِنى[1]

وهؤلاء الذين ذكرناهم أكثرهم ممن أدركوا في أواخر عمرهم أوائل ظهور الإمام قُدِّس سرّه. وأما الذين أدركوا زمان كمال ظهوره وبايعوه أو اقتبسوا من أنواره من المحقّقين والمدقّقين فلا يحصي عددهم إلا الله لو حاول شخص ذكرهم لاقتضى مجلدات كثيرة، وقد أُلِّفَ بالفارسية مناقب شتّى، وأما هذه الوريقات فلم نقدر أن نثبت فيها إلا قطرة من تلك البحار، ومن جملة كبار مريديه السيد آدم البنوري والمير محمد نعمان البدخشي والشيخ تاج الدين الهندي صاحب الرسالة التاجية المذكور ترجمته في خلاصة الأثر، فإنه صَحِبَه بعد وفاة الخواجة محمد الباقي بالله قُدِّس سرّه، ثم ابتلي بمرض الإنكار مع من

---

(1) عجز بيت شعر من بيتين للشاعر ابن نباتة المصري (محمد بن محمد بن الحسن الجذامي الفارقي المصري أبو بكر جمال الدين المتوفّى سنة 768 هجرية) والبيتان كاملان هما:

أقول وقد جاء الغلام بصحنِهِ ... عقيب طعام الفطر يا غاية المنى
بعيشك قل لي جاء صحن قطايفٍ ... وبُحْ باسمِ مَن تهوى ودعني من الكُنى

(الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، أبو ظبي).

ابتلوا ثم أدركته العناية الإلـهيّة لأسباب يطول شرحها وتاب وأناب وصار باعثًا على رجوع كثير من المنكرين، وقصّته مذكورة في كتب المناقب الربّانية، وللإمام قُدّس سرّه مكاتيب إليه بعضها مندرج في جملة المكتوبات وبعضها غير مندرج فيها بل مسطور في المناقب تركنا ذكرها خوف الإطالة، فإن فيما ذُكِر من المكاتيب كفاية للمكتفي، والله الهادي.

المنظرة الخامسة في ابتلاء الإمام قُدّس سرّه بحسد الحَسَدة اللّئام وطعن الجهلة كالأنعام واعتراضات المعترضين من العوام الذين يُعِدُّون أنفسهم من فُضلاء الأنام وما أصابه بسبب ذلك من الأذيّة والآلام إلى لقاء الملك العلّام.

لا يخفى على اللّبيب المتدرّب المُجرّب للأمور أن الشهرة بالفضل والكمال مع حسد الأقران وطعن الجهالة كالشخوص مع الظلال لا يفترقان في غالب الأحوال سنّة الله التي قد خَلَتْ في عباده، خذ من أبينا آدم عليه السلام وأمرر بنظرك من مضى من الأعلام إلى هذه الأيام، فهل ترى فيهم أحدًا لم يبتل بذلك، كلّا. ولذلك قيل: شعر:

إنْ يَحسدوني فإنّي غيرُ لائمهم
قبلي مِنَ النّاسِ أهل الفضلِ قدْ حُسِدوا[1]

فالحسد من الجُهّال هو علامة وجود النّعمة في المحسود من الملك المتعال، فإنه لولا النعمة لما وُجِد الحسد، ولذا قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: واستحقر من لا يُحسد ولا يُقذف، واستقصر من بالكفر والضلال لا يُعزف، ولله درّ القائل: شعر:

وَأَسْوَأُ أيامِ الفَتى يومَ لا يُرى   له أحد يُزْري عليه ويُنْكِر[2]

(1) هذا البيت هو للشاعر المخضرم الكميت الأكبر بن ثعلبة بن نوفل الأسدي، أبو أيوب المتوفّى سنة 60 هجرية (المرجع السابق).
(2) هذا البيت هو للشاعر العباسي عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي المتوفّى سنة 190 هجرية. (المرجع السابق).

وقال الإمام السيوطي رحمه الله تعالى في كتابه «التحدث بنعمة الله»: ومما أنعم الله به علي أن أقام لي عدوًّا يؤذيني ويمزّق في عرضي ليكون لي أسوة بالأنبياء والأولياء، قال رسول الله ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم العلماء ثم الصالحون» رواه الحاكم، وقال كعب الأحبار لأبي موسى الخولاني: كيف تجد قومك لك؟ قال: مكرمين مطيعين، قال: ما صدقتني التوراة إذًا، وأيم الله ما كان رجل حليم في قوم قطّ إلّا بغوا عليه وحسدوه، رواه البيهقي. ثم قال: واعلم أنه ما كان كبير في عصر قطّ إلّا كان له عدوّ من السّفلة؛ إذ الأشراف لم تزل تُبْتَلى بالأطراف فأعداء الأنبياء معروفة، ثم أخذ يعدّ من ابْتُلي بشماتة الأعداء من الصحابة ومَن بعدهم، ومختصرنا هذا لا يتحمّل ذكرهم ومن له أدنى إلمام بالتواريخ والتراجم لا يخفى عليه أحوالهم، حتى قيل: لا يكون الصديق صديقًا حتى يشهد سبعون صديق بأنه زنديق.

فإذا تمهّد ذلك، فاعلم أن للإمام الربّاني قُدّس سرّه من ذلك حظًّا أوفى ونصيبًا أوفر، كيف لا؛ فإنه مُجدّد الألف الثاني، وهل يتيسّر التجديد بالسهولة بلا تغيير هذا وإنكار ذاك وتقبيح هذا وتوبيخ ذاك، هيهات، فإن التجديد هو تغيير الأوطار والهيئات وإزالة المنكرات والهيئات وتبديل السيّئات بالحسنات مع شيوع أنواع البدع والخرافات وفشوّ أصناف الضلالة والجزافات خصوصًا المقلّدين بأرباب التوحيد الوجودي، فافهم. كانوا انتشروا في جميع الآفاق وخلعوا ربقة الشريعة عن الأعناق، وكانوا ينقلون الكلمات المشعرة بظاهرها بالتوحيد الوجودي عن الجنيد وأبي يزيد البسطامي وإضرابهما من أكابر الصوفية لتأييد مذهبهم الباطل وترويجه بين العوامّ كالأنعام، فكان الإمام الربّاني قُدّس سرّه يردّ عليهم بأشدّ ردّ ويصرّح أنهم الملاحدة والزنادقة حقًّا مقصودهم أبطال الشريعة الغرّاء، ولم يبالِ أيضًا من تخطئة الجنيد وأبي يزيد فيما أعجزه تأويل كلامهما وتوجيهه كما ستطلع عليه في أثناء مكاتيبه.

قال مولانا شاه عبد العزيز بن شاه وليّ الله الدهلوي رحمهما الله سبحانه وتعالى: ولمّا استوت هذه الطريقة ـ يعني معرفة التوحيد ـ ونضجت وسلك بعض ناقصي الفهم طريق الإلحاد في فهم كلمات عرفاء الطريقة بمرور الأزمنة

واتخذوا هذه المعرفة الغامضة وسيلة لإبطال الشريعة وتكليفاتها وشاع مذهب بعض الشيوخ الذي كان بظاهره واضعًا قدمه في وادي الإلحاد شيوعًا تامًا، وراج بين الناس رواجًا عامًا أظهرت عناية الحقّ سبحانه حضرة الشيخ أحمد السرهندي قُدِّس سرّه في الوجود وألقى إليه علومًا غريبة ليكون من قبيل تعديل الحار بالبارد والرطب باليابس حتى تستقرّ وتترشّح الهيئة الاعتدالية في أذهان الناس ويرتفع الباطل الممزوج بالحقّ بالكلّية، وهذا هو مصداق معنى المجدّدية. اهـ. ومن كان شأنه هذا هل يَسْلم من أذيّة الناس وطعنهم فيه وبهتهم إيّاه وافترائهم عليه كما قال الإمام قُدِّس سرّه هذا الكلام في بعض مكاتيبه وضمّ إلى ذلك اجتماع الجمّ الغفير من الفضلاء والعلماء والكُمَّلاء تاركين طرقهم التي كانوا سالكين إياها قبل ولا حاجة إلى بيان ما يحصل لمشايخهم الأول لذلك من الحقد والحسد والضغينة في حقّ الإمام قُدِّس سرّه فيما هنالك واختراع المكائد والحِيَل لإلقائه في المهالك تارة بإغراء الناقصين بأنه يهين كُبَراء المشائخ الكرام؛ كالجنيد وشيخ بسطام وتارة بتنفير القاصرين بأنه يُنكر التوحيد الوجودي الذي هو المتّفق عليه بين المتأخرين من المشائخ الأعلام، وتارة بإغفال المخلصين بأنه ينكر مشائخه العظام ويدّعي الأصالة في الوصول إلى الملك العلّام، وتارة بأنه ينوي الخروج عن طاعة الإمام إلى غير ذلك من الافتراءات وأنواع البهتان التي لا تصدر عن فرد من أفراد أهل الإسلام.

أمّا ما تقوّلوا عليه في حقّ المشائخ الكرام فهو افتراء محض في حقّ هذا الإمام، فإنّ من تتبّع كلامه يجده مشحونًا بتعظيمهم غاية التعظيم ويقرّ بفضل الأسلاف العظام، غير أنه لما رأى تشبّث بعض المبطلين ببعض كلمات هؤلاء الكبراء كان يؤوّل كلامهم بتأويل حسن ويوجهه بتوجيه مستحسن، وإذا أعجزه التأويل كان ينسبهم إلى الخطأ في الكشف ويردفه ببيان أنه صدر منهم في أوائل حالهم، وأنهم جاوزوه إلى مراتب كثيرة في نهاية كمالهم، وأنهم معذورون في ذلك الخطأ الكشفي، بل مأجورون كالخطأ الاجتهادي، وهكذا قال أيضًا في مسألة التوحيد الوجودي يعرف ذلك من تتبّع كلامه بالإنصاف وأبعد عن نفسه الاعتساف، فأين الإهانة، وأين الاحتقار، وأين النفي، وأين الإنكار؟! بل إنما فعل ذلك حفظًا لناموس الشريعة الغرّاء وصَوْنًا لساحة هؤلاء الكبراء عمّا كان

ينسبه المبطلون إليهم ويتقوّلونه عليهم ونصحًا لهؤلاء المُبْطلين وغيرهم ممن عساه أن يُقْتَدى بهم في ذلك ويتمذهب بمذهبهم الباطل فيما هنالك، فهل يعدّ هذا من المثالب أو من أعلى المناقب وأسْنى المطالب، ولكن لمّا كان دَيْدن أرباب الأغراض إثارة الفتن والشرور كانوا لا يتحاشون من ارتكاب أنواع البهتان وأقــوال الــزور، ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ۝٤٠﴾ [النور: الآية 40].

قال بعض الفضلاء: إن أقوى سبب هيجان هذه الفتنة هو إنكار التوحيد الوجودي وإثبات التوحيد الشهودي، فإن أسماع أكثر الناس وأذهانهم كانت مملوءة بمسألة التوحيد الوجودي مذ أربعمائة سنة، يعني من عهد الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي إلى عصره قُدّس سرّه، وإنكار حضرة المُجَدِّد مسألة وحدة الوجود ليس كإنكار علماء الظاهر، بل هو يصدق المقام الذي يتكلّم فيه الوجودية ويسلمه ويقول: إن المقصود الحقيقي فوق هذا المقام، ويثبت الغيرية بين الحق والخلق على نهج لا يكون مُخِلاً لوحدة الوجود الحقيقي المتحقّق في الخارج الحقيقي بخلاف الوجودية، فإنهم يثبتون العينية بين الحق والخلق. اهـ. وهذا الكلام كلام من حقّق كلام الإمام، وظفر بغاية المرام، ومن تتبّع مكتوباته المتعلقة ببيان هذه المسألة مبتدئًا من المكتوب الحادي والثلاثين من الجلد الأول إلى آخر المكتوبات الشريفة يظهر له أحوال الإمام قُدّس سرّه في هذه المسألة وغيرها ظهور الشمس في برجها.

وأما حديث إنكار مشائخه العظام ودعوى الوصول بلا واسطة أحد إلى الملك العلّام، فهو أيضًا من افتراءات الحسدة اللّئام حاشاه من ذلك، ثم حاشا. نعم قد بيّن في المكتوب السابع والثمانين أسرار المريدية والمرادية، فأخذ بعض أرباب الغرض من بعض عباراته هذا الذي ادّعوه عليه كذبًا وبهتانًا مع إقراره فيه بوجود التوسّط والوسائط في طريقة المريدية كما لا يخفى على الناظر فيه، ومن جملة من كاد يزلّ قدمه فيه الشيخ عبد الحق الدهلوي رحمه الله تعالى، لولا أن تداركه الله سبحانه بلطفه كما قدّمنا، وقد أجاب عنه الإمام قُدّس سرّه في المكتوب الحادي والعشرين والمائة من الجلد الثالث، فراجعه إن شئت.

وأما مسألة الخروج عن طاعة الإمام فحاشا ثم حاشا من ذلك، فإنه قُدِّس سرّه كان أوّل من ينصح الناس بطاعة الإمام وانقياد الحُكّام والاتفاق والالتئام التام، ويُحَذِّر سوء عواقب المخالفة والمجادلة وإخلال الاستسلام، ولكن لما كان هذا الأمر من آلة العجزة من أخذ الثأر والانتقام وسريع التأثير في بلوغ المرام للحسدة اللّئام صار الأعداء يتشبّثون بأذيال هذا السبب بكل وجه ممكن، ولم يألوا جهدًا في تهييج الخاطر ولو من رجل متمكّن، وقد كان أكثر أركان دولة سلطان الوقت جهانكيرخان حتى حرمه والوزير الأعظم من الرَّفَضة، وكان المفتي أيضًا منهم، وكانت سهام الإمام الربّاني قُدِّس سرّه مفوّقة نحوهم دائمًا، وكان لا يخلو من ردّهم وتجهيلهم وتحميقهم وتسفيههم دائمًا كما لا يخفى على من طالع مكتوباته قُدِّس سرّه زيادة على ما صنّفه من الرسالة المستقلّة في ردّهم حتى قيل: إنه أرسل هذه الرسالة إلى عبد الله خان الأوزبكي الجنكزي أكبر خوانين الأزبك في بخارى وأشهرهم ليعرضوها على الروافض في بلاد العجم من الصفوية، وكان كبيرهم وقتئذ شاه عباس المشهور، فإن قبلوها فَبِها ونَعِمَت، وإلّا فيجوز قتالهم وسبي ذراريهم، ففعله عبد الله خان المذكور، وأخذ الهراة وبلاد خراسان منهم بعد أن مضت من استيلائهم عليها قريبًا من مائة سنة، وصار يحاربهم دائمًا، ويسبي ذراريهم، ويوصلهم إضرارًا كلّيًا إلى آخر عمره كما هو مشهور في التواريخ، وكانت ضغائن الروافض وأحقادهم عليه قُدِّس سرّه بهذه الأسباب، مما لا يمكن وصفه، بحيث لو ظفروا به لمزّقوه تمزيقًا، وكانوا ينتهزون الفرصة لذلك، ولمّا بلغهم ما عليه الحَسَدة اللّئام، فرحوا به، واتّفقوا معهم على نصب شراك المكائد والمكاره، ووشوا به إلى السلطان الذي كان قلّما يفيق من السكر بواسطة مقرّبيه من الروافض، قائلين بأنه يدّعي التفوّق على الكلّ حتى على الصديق، وأظهروا له المكتوب الحادي عشر من الجلد الأول من جملة عرائضه على شيخه في بيان ما ظهر له من الوقائع في أثناء سيره تصديقًا لزعمهم في دعواهم، فأرسل إليه السلطان يطلبه عنده مع أولاده وأكبر خلفائه لإهلاكهم، فأرسل إليه شاه جهان، ولد السلطان المذكور، واحدًا من خواصّه مع المفتي عبد الرحمٰن، ومعهما الرواية الفقهية في جواز سجود التحية للسلاطين، قائلاً بأنه لو سجد للسلطان فأنا متكفّل لخلاصه من شرّ السلطان، وكان مخلصًا للإمام الربّاني وخبيرًا بأن الأعداء إنما يظفرون ببلوغ

مناهم من تركه السجود للسلطان، فلم يقبله الإمام قائلاً: بأن هذه رخصة والعزيمة تركه، ولا ملجأ إلى هذه الرخصة خصوصًا لمن يُقتدى به غيره، والموت حق لا منجى منه، فترك أولاده وأكابر أصحابه احتياطًا، وتوجّه بنفسه مع بعض أصحابه، فلما دخلوا على السلطان، سأله عن مضمون المكتوب المذكور، فأجابه جوابًا مقنعًا حيث لم يكن أهلاً لدَرْك الحقائق والأسرار، فطاب وقته وأمره بالانصراف مصحوبًا بالسلامة، فلما رأى الحُسّاد أن قلب السلطان قد طاب، وأنّ سعيهم قد ضاع وخاب، قَلَبوا ظهر المِجَنّ، وقالوا للسلطان: إنه مستحقّ للأذيّة والمِحَن، فإنه كثير الاتباع وقويّ الشوكة لو تخلّص من هنا لأحدث الاختلال والفتن. أما ترى إلى استكباره عليكم واستخفافه بكم حيث لم يسجد سجود التحية، بل ولا حياكم بالتحية العادية، وكان الإمام على ما قيل لم يسلم عليه وقت دخوله لكونه سكران، فأثر فيه هذه السعاية، وظهر بصفة الغضب والغواية، وسلب عن نفسه حلية الرعاية، وبعد أن جرى الكلام في حقّه بين أهل المجلس، ودار أمر السلطان بحبسه قُدّس سرّه في قلعة كواليار المشهورة بغاية الحصانة والمتانة في تلك الديار، فحُبِس في المحبس المذكور جناب الإمام كما يُحْبَس سواجع الحمام في قفص اللّئام واستترت طلعته البهيّة من الأنام كما يستتر أنوار بدر التمام بحُجُب الغمام، وفي ذلك يقول سحبان الهند السيد غلام علي المتخلص بازاد: **شعر**:

لقد برع الأقران في الهند ساجع   وجدّد فن العشق يا للمغرد
فلا عجب أن صاده متقنص   ألم تر في الأسلاف قيد المجدد

وفي هذه المعاملة لله سبحانه حِكَمٌ خفيّة ومصالح جليلة، فهي مِحْنة جليّة ومِنْحة جزيلة.

منها أن الإمام الربّاني قُدّس سرّه أطلع بالكشف الصحيح أن وراء ما بلغه من المقامات مقامات أخرى كثيرة عالية جدًا، وأن الوصول إليها موقوف على التربية الجلالية، وقد كانت تربيتها كلها بطريق الجمال، وأنه أدرك بالكشف أيضًا أنه ينالها بعد أن يتربّى بتلك التربية، فأخبر أصحابه يومًا أنه يصيبه بلاء ومحنة فيما بين الخمسين والستين ليحصل له تلك المنحة، فوقع الأمر كما أخبر ونال من تلك المقامات حظًا أوفر.

ومنها أن ألوفًا من الكفار وألوفًا من الفُسّاق والفُجّار المحبوسين قد تشرّفوا بشرف الإيمان والإسلام والتوبة إلى الله سبحانه من جميع المعاصي والآثام، وصار بعضهم من الفضلاء الأعلام كلٌّ ذلك ببركة قدومه قُدِّس سرّه في ذاك المحبس الظلام، حتى قيل: إن واحدًا من كبراء أمراء الهنود المجوس الذي كان حاضرًا في مجلس السلطان وقت تشريف صاحب الإيقان أسلم في ذلك المجلس لما رأى من شدّة صلابة الإمام قُدّس سرّه في الدّين وتعرُّضه للموت بعدم المبالاة بشدّة غضب السلطان لتيقّنه أن ذلك لا يكون إلّا من شدّة قوة الإيمان واستيلاء نور الإيقان، وقيل: إن وزير السلطان عيّن لتولية حراسته في الحبس أخاه، وكان من غُلاة الروافض قصدا بذلك إجراء كمال الشدّة بالإمام، فلمّا رأى منه المذكور أنواع الكرامة وعدم الانزعاج وكمال الوقار، بل الابتهاج التامّ في ذاك المحبس تاب إلى الله تعالى ونفض عن نفسه غُبار الرفض وتحلّى بحلية السنية، وصار من جملة المُحبّين والمخلصين، فيا لها من نعمة جزيلة في صورة نقمة جليلة، ولهذا كان الإمام قُدّس سرّه راضيًا من السلطان وممنونًا من معاملته هذا وداعيًا له بالخير، وكان بعض أصحابه يقصدون الإيقاع بالسلطان، وكانوا مقتدرين على ذلك ولكن كان الإمام يمنعهم ممّا هنالك في النوم واليقظة ويأمرهم بالدعاء للسلطان بالخير، حيث صار سببًا لحصول ما كان يتمنّاه طول عمره ويقول: إن إضرار السلطان إضرارٌ بجميع الخلق يعرف صدق ذلك بالمراجعة إلى مكاتيبه التي كتبها من الحبس إلى أولاده وخُلّص أصحابه، وهي مندرجة في الجلد الثالث.

وقد صحّ بنقل الثقات أن شاهجان ولد السلطان جهانكير لما خرج على أبيه بطلب السلطنة، ولم يتيسّر له الفتح والظفر مع كثرة أتباعه وكون أمراء أبيه معه في الباطن شكا حاله إلى واحد من أولياء عصره، فقال: إن الظفر موقوف على اتّفاق أربعة من أقطاب ذلك الوقت عليه، وقد اتّفق ثلاثة منهم عليه دون الرابع، وهو أكبرهم، وهو حضرة الإمام المجدّد قُدّس سرّه، فجاء عنده والتمس منه الدعاء بالفتح والظفر، فمنعه الإمام الربّاني من مخالفة أبيه ونصحه وأمره بالرجوع إلى موافقته وبشّره بصيرورة السلطنة إليه عن قريب بعد موت أبيه، فقبل كلامه ورجع عمّا رامه، فكيف يسند الحَسَدة إليه الخروج عليه قاتلهم

الله أنّى يؤفكون، فلمّا اعتكف الإمام في القلعة المذكورة عدّة من الأعوام، قيل: ثلاثة، وقيل: اثنان ندم السلطان عمّا فعله في هذا الشأن لأسباب يطول شرحها، فأخرجه من الحبس وأكرم وأحسن إليه بأنواع الإحسان، وصار من جملة المخلصين والإخوان، لكن أمره بالإقامة في معسكره مدة من الزمان، ثم أطلق سراحه وأعاده إلى وطنه محفوفًا بالإجلال والاحترام، فعاد بألوف من الفتوح على ما كان فيه أوّلاً من الأحوال والمقامات التي يعجز عن وصفها ألسنة الأقلام، ولا يدركها إلّا من كان له من الله الألطاف الخفيّة وأنواع الفتوح، فصار يصدر عنه قُدِّس سرّه من الحقائق والدقائق والمعارف والأسرار ما لا يقدر على فهمها ودَرْكها، إلّا أولاده العِظام وخلفاؤه الكبار، فتمّ بها مكاتيبه الشريفة ثلاث مجلدات كبار، ولذلك ترى ما اندرج في الجلد الثالث غير لائق بكل سالك سيّار، بل لا بدّ لإدراكها في الجملة من اكتحال بصر البصيرة بكحل العناية والأنوار، بل لا بدّ له من إمداد روحانيّته قُدِّس سرّه كما أقرّ به المشائخ ذوو الكمالات والاستبصار، والله الهادي إلى سبيل الرشاد ومنه المبدأ وإليه المعاد.

وإنما أطنبنا في بيان كيفية هذه الواقعة لأمرين:

أحدهما: إن بعض المنكرين أشاعوها بوجه آخر مخالف للواقع، فأردنا إظهار حقيقة الحال.

وثانيهما: إعلام أن الأولياء الكبار بل الأنبياء العظام لم يزالوا مُبْتلين بأنواع البَلِيّة والمصائب ليتأسّى بهم أولياء زماننا وصلحاؤهم ويتّسلوا ولئلا يسيء عوام زماننا ظنهم بأولياء عصرهم إذا رأوهم مُبْتلين بأمثال هذه البليّة، وهذا أراه من اللوازم لمن يشتغل بنشر مناقب الصالحين، وأكثر الناس أهملوه، بل كتبوا أوصافهم الملكية دون لوازمهم البشريّة، فظنّ العوامّ أنهم منسلخون منها بالكلية فتعلّقت بهم محبّتهم التامّة، ثم نظروا إلى من اشتهروا في عصرهم بالصلاح والتقوى والولاية، فوجدوهم متلبّسين باللوازم البشرية فساء ظنّهم بهم فتضرّروا ضررًا كليًّا حيث حُرِمُوا من بركاتهم، بل صاروا في مقام الطعن فيهم وقدحهم وذمّهم، ولم يدروا أن الأسلاف أيضًا كانوا كذلك ما داموا في الدنيا، ولم

يشعروا أن هذه اللوازم البشرية هي القُباب الإلـهيّة المذكورة في الحديث القدسي: **«أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري»**[1]، كما قال الإمام الربّاني قُدّس سرّه، ومن هذا القبيل صدور بعض الزلّة من بعض المشهورين بالصلاح والولاية، فإنها ربما تكون في حقه سببًا لترقّيه كما بسّط هذا الشيخ محيي الدين بن عربي قُدّس سرّه في موضع من فتوحاته، قال في الحكم: معصية أورثت ذُلًّا وافتقارًا خير من طاعة أورثت عزًّا واستكبارًا، فاعلم ذلك وظنّ خيرًا بأولياء الله ولا تسيء الظن بهم بسبب ما صدر عنهم أحيانًا من الزلّة بناء على حكم ومصالح واعتقد أنهم غير معصومين، والله سبحانه يتولّى هداك.

ولما نال الإمام قُدّس سرّه من الله ما أمله وبلغ ما أمّ له وبلغ الكتاب أجله ناداه منادي الحق فأجاب النداء وانضمّ بالرفيق الأعلى والتحق، وكان ذلك يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من صفر سنة أربع وثلاثين وألف، ودُفن في مقبرة سرهند روّح الله تعالى روحه ونوّر ضريحه ونفعنا ببركة أنفاسه الشريفة ومحبّته المُنيفة ورزقنا من شفاعته وحشرنا تحت لوائه مع محبّيهم وجماعتهم، آمين.

المنظرة السادسة في بيان من أنكره بعد فوته ومن مدحه وأثنى عليه:

اعلم أن الناس كما كانوا في حقّه فرقتين في حياته بسبب اختلاف المشارب والأعراض والمقاصد، كذلك افترقوا في حقّه بعد فوته أيضًا على هاتين الفرقتين للأسباب المذكورة، فمن مبغض قادح ومُحبّ مادح، وإن كان بين الفريقين بونًا بعيدًا بأن كان الأوّل شقيًّا، والثاني سعيدًا، فهذا في الجنّة وذاك في السعير.

قال الشيخ وليّ الله الدهلوي: ولقد جَرَتْ على الإمام قُدّس سرّه سُنّة الله تعالى وعادته في أنبيائه من قبل بإيذاء الظّلَمة والمبتدعين وإنكار الفقهاء المتقشفين وذلك ليزيد الله في درجاته ويلحق به الحسنات من بعد وفاته، إلى أن قال: وبالجملة قد بلغ أمره إلى أن لا يحبه إلا مؤمن تقي، ولا يُبغضه إلّا فاجر شقي، فلا حاجة لنا إلى الذبّ والدفع عن الإمام الهُمام رضي الله عنه،

(1) أورده الجرجاني في التعريفات، تعريف رقم (1474) [1/295].

ولا إلى إقامة الدلائل العقلية والنقلية على جواز ما ادّعاه.اهـ. بأدنى تغيير، يعني أن حقيقة ما عليه الإمام قُدِّس سرّه ظاهرة وبيّنة وبطلان ما عليه الخصم ولا شيئيته أيضًا جليّة ومستبينة وأنوار معارف الإمام منتشرة ومنبسطة في جميع الآفاق والأقطار لا يقدر الخصم العنيد على سترها بغيوم الجحود والإنكار، بل كان إنكارهم سببًا لشدّة ظهور ذلك النور وزيادة الانتشار، ولله درّ من قال: شعر:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود[1]

فإن المنكر كلّما أظهر شيئًا من سمّ الإنكار والاعتراض على معارفه السامية أظهر المحبّون ترياق أجوبة متعددة واستشهدوا لها بشواهد كثيرة شافية حتى بلغت عدد الرسائل المصنّفة من طرف المحبّين سبعين رسالة، بل زاد على ذلك وأجلّ ما صُنّف في هذا الباب رسالة: «عطيّة الوهاب الفاصلة بين الخطأ والصواب» للشيخ محمد بك الأوزبكي المكي أفاد فيها كل الإفادة، وأجاد غاية الإجادة بحيث إنه هدم بنيان أباطيلهم من الأساس وأرسل إليهم أبابيل الردّ، ولم يترك لهم مجال رفع الرأس صنّفها ردًّا لرسالة بعض المعاندين في ذاك العصر وقرظها أساطين علماء ذلك الدهر حتى انمحى إنكار المنكرين واضمحلّ عناد المعاندين، وأنا تركت إثبات الرسالة المذكورة في هذا المحل، فإن غرضنا الآن ذكر من مدح الإمام ومعارفه لا الجواب وردّ أهل الشنآن، وتركت ذكر أسامي المنكرين ونقل أقوالهم عملاً بقوله ﷺ: «اذكروا محاسن موتاكم وكفّوا عن مساوئهم»، ولعلهم تابوا وأنابوا وتاب الله على من تاب، ومن أصرّ فقد خاب ورجع بخفّي حُنَيْن وآب ومن تصدّى لإظهار الإنكار، فأشبال الإمام المعنوية موجودون في كل غاب حاضرون للانتصار بكمال النشاط والترحاب، إلّا أني أثبت هنا تقاريظ العلماء المذكورين لكونها مشتملة على فوائد جمّة وعوائد مهمة تنكشف بها كل مشكلة مدلهّمة ولكون أربابها من فضلاء ذلك العصر وكُمَلاء ذاك الدهر يُوقَف عند أقوالهم ويُقْتَدى بأفعالهم.

---

(1) هذا البيت هو من قصيدة طويلة للشاعر العباسي أبو تمام حبيب بن أوس بن الحارث الطائي المتوفّى سنة 231 هجرية. (الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، أبو ظبي).

فمنها: تقريظ شيخ الإسلام المفتي ببلد الله الحرام مولانا المرحوم المبرور الإمام العلّامة عبد الله عتاقي زاده رزقه الله الحسنى وزيادة.

قال رحمه الله تعالى: بسم الله الرحمٰن الرحيم، الحمد لله ربّ العالمين، ربّ زدني علمًا، الحمد لله المانح للصواب والموفّق للإصابة في الجواب ونشكره أن برّأنا من الأغراض وطهّر قلوبنا من نكتة الران وأكنّة الأمراض، ونشهد أن لا إلٰه إلّا الله الهادي والمُنْعِم بما يرضيه ونشهد أن سيدنا ومولانا محمدًا ﷺ عبده ورسوله القائل: «من حُسْن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[1]، ونصلّي ونسلّم عليه وعلى آله وأصحابه الآمرين بالمعروف والنّاهين عن المنكر، صلاةً وسلامًا دائمين ما تكرّرت العشايا والبكر.

أما بعد، فقد أخبرني الجمّ الغفير الثقات والبالغون حدّ التواتر مقبولو الروايات بأن أولاد الشيخ أحمد الفاروقي السرهندي النقشبندي ومريديهم الموجودين الآن سالكون مناهج الشريعة المستقيمة ملازمون الطاعة والجماعة على الطريق الحنفية السهلة القويمة، وأنهم أخذوا الطريقة المذكورة عن والدهم المذكور، وليس فيها ما يخالف الشريعة الغرّاء ويُوقع في محذور، وهذا مما لا مِرْيَة فيه ولا ريب، لأنني أحطتُ علمًا بآداب الطريقة النقشبندية وأخذتها عن جماعة زهّاد أجلّاء عظماء.

وإذا تقرّر هذا فليعلم أن للشيخ أحمد مكتوبات واقعة باللغات الفارسية مبنية على قواعد السادات الصوفيّة باصطلاحاتهم المرضية، بل له رضي الله عنه اصطلاحات خاصة رضِيّة ولا مشاحة فيها، وقد تصدّى بعض مُبْغِضي الطريقة النقشبندية والشيخ المذكور، وعرّب بعض مواضع من المكتوبات وحرّف وغالى بما يوجب القيل والقال وصدره بالسؤال، وطلب مني الكتابة عليه قبل كل فامتنعت تديّنًا، وقد ألحّ عليّ مرارًا كثيرة فأجبته بالحديث السابق: «**من خير إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»[1]، ثم زاد في اللّجاج، وقال: اسأل عمّن سبّ ونقص وذكر كلامًا لا يستطاع ذكره على لسان مسلم

(1) رواه الترمذي في سننه، كتاب الزهد، باب 11، حديث رقم (2317) [4/ 558]؛ وابن حبان في صحيحه، باب ما جاء في صفات المؤمنين، حديث رقم (229) [1/ 466]؛ ورواه غيرهما.

ولو حكاية، فحينئذ أجبته شفاهًا باللسان بما هو مقرّر عند أدنى الطلبة، وفي جميع الكتب في باب الردّة، وطلب الكتابة أيضًا من جماعة علماء أتقياء حنفية وشافعية، فلم يوافقوه على ذلك، بل أجابوه بالحق المخالف لهواه وكتب عليه شخص من الفضلاء أخذًا بظاهر ألفاظ التعريب مع إمكان التأويل ووافقه جماعة ممن لا يُعْبأ بهم، وزاد بعض جُهّال في الهذرمة، وطغى بعضهم نقش ما رُسِم له، فحاكاه كالبغبغا وليته إن كَتَب فَهِمَ، وهل يَفْهم ولو ظفر بكتابة الموافق الجاهل المتعنّت لأجرى عليه مقتضى لفظه شرعًا إن لم ينكره، لأنه عرض بالعلماء الأجلاء الذين لا يصلح أن يكون تلميذًا لهم، فعليه من الله ما يستحقّه، وقد اعتذر عنهما بعض العلماء الأجلّاء في تعريضه، ولولا عته وجهل الأول وجهل الثاني لحكمنا بكفرهما، ولكن لما كان لهما نوع عذر باعتبار أن العوام لا يكلّفون إلّا بمعرفة المسائل الجليّة دون المسائل الخفيّة، وهذه المسألة من المسائل التي تخفى على مثلهما من العوامّ عرضنا عن الحكم بذلك، ولكن مثل هذين الجاهلين ينبغي تأديبهما وزجرهما عن الخوض فيما لا وصول لأذهانهما إليه. اهـ.

فما أحسن هذا الاعتذار الدالّ على جهلهما المبين لحالهما، وما للكاتب من الاعتذار، فلله درّه، ومع هذا فقد محوا ما كتباه وأنكراه بغاية الذلّة والاستغفار ويكفيهما ذلك خزيًا وتعزيرًا في سائر الأعصار، قال علماؤنا: إنكار الكفر توبة، وقد ردّ بعض الأفاضل على هذا المعرب المتبّع لهواه المحرف لكلام الشيخ بالتعريب ومزجه بالدسائس وزيف كلامه وكلام من يعدّ فاضلاً، وسرد كلام الشيخ المذكور بلفظه الفارسي وعربه بالواقع فأطال، وحسن التأويل والمقال وقرّظ عليه جماعة علماء أجلّاء، والأحرى ترك التعريب المحتاج إلى التأويل؛ لأن لبعض الألفاظ إذا وقعت فارسية حكمًا، وإذا وقعت عربية حكمًا آخر، قاله علماؤنا في أماكن متعددة من كتب الفتاوى ذكرعلامة المذهب قاضيخان في فتاواه المشهورة في الشروط المفسدة للبيع رجل اشترى شيئًا على أن يحمله البائع إلى منزل المشتري إن قال ذلك بالعربية لا يجوز، وإن قاله بالفارسية جاز؛ لأن العربية تفرق بين الحمل والإيفاء والفارسية لا تفرّق، ويكون الحمل بمنزلة الإيفاء. اهـ.

والحاصل أن ألفاظ المكتوبات الصادرة من الشيخ باللغة الفارسية باصطلاح القوم ولسانهم، حيث كانت سالمة عن وصمة قائلها شرعًا ولا محذور فيها، ولو بوجه ضعيف لا يُلْتفت إلى التعريب المُخِلّ المحتاج إلى التأويل، بل يترك كلام المتكلم بلفظه عربيًا أو فارسيًا الخالي عن التعريب لموافقة الشرع الشريف كما أخبرني من تقدّم، ولا تتكلّف لتعريبها وإن لم يتغيّر معناها ومدلولها، فكيف مع التغيير الموقع في محذور لو فرض، ولا يقدح في الشيخ تعريب ذلك المتعنّت مع براءته كما ذكر، وليت شعري أيّ حاجة داعية إلى التعريب لنكفر به مسلمًا ما هذا إلا جرأة وافتراء بلا مراء، فإن تكفير المسلم أمرٌ عظيم. قال في البحر ناقلاً عن الفتاوى الصغرى: الكفر شيء عظيم فلا أجعل المؤمن كافرًا متى وجدت رواية أنه لا يكفّر. اهـ. ثم قال فيه: قال في الخلاصة: إذا كان في المسألة وجوه توجب الكفر ووجه واحد يمنع التكفير، فعلى المفتي أن يميل إلى الوجه الذي يمنع التكفير تحسينًا للظنّ بالمسلم. اهـ.

ثم **قال**: والذي يحرّر أن لا يفتي بتكفير مسلم أمكن حمل كلامه على محمل حسن، أو كان في كفره اختلاف ولو رواية ضعيفة، وهذا الذي أدين الله به وأعتقده، ثم أن الفقير في شغلٍ شاغل من مثل هذه الخرافات والكتابة عليها والتقريظ والموافقة بالواقعات اليومية المتعيّن على بيانها بأمر الدولة العليّة أدامها الله تعالى وأدام إحسانها على سائر البَرِيّة، وإنما أخبرني من تقدم ذكره أن ما وقع من التعريب والتحريف والكتابة عليه والموافقة لو ظهر وأصغى إليه سمع أهل العناد لأقام الفتنة النائمة الداعية إلى الفساد وتخريب البلاد وإضرار المسلمين والعارفين والعباد والعلماء والزهّاد والمشائخ الأمجاد وطلب مني كتابة ما تيسّر لدفع هذه المضارّ العديدة بألفاظ وجيزة مفيدة، فوجبت عليّ - يعني الكتابة - وسطرت ما ذكر لحقن الدماء والانتصار للعلماء والصُلَحاء والمشائخ الأتقياء، والله سبحانه نسأل أن يوفّقنا لما يحبّ ويرضاه ويصون لساننا وقلمنا عن إضرار الناس، ولا يجعلنا ممن يطيع هواه، قال ذلك الفقير إلى الله تعالى عبد الله عتاقي زاده الحنفي القائم بخدمة الفتوى بأمّ القرى مكّة المشرفة عفى عنهما بمنّه وبكرمه حامدًا مصلّيًا مكبّرًا مُهلّلاً، تمّ.

قوله: الأحرى ترك التعريب... الخ.

قلت: هذا إذا كان لغرض نفساني بالتحريف. أما إذا كان لغرضٍ صحيح سالمًا عن التحريف فلا مانع من ذلك، وبه جرت عادة العلماء قديمًا وحديثًا، والله يعلم المفسد من المصلح، وهو أعلم بكلّ شيء.

ومنها تقريظ العلّامة الشيخ حسن ابن الشيخ محمد مراد التونسي المكي، وهو مقدار كراسة سماه بالعرف الندي في نصرة الشيخ أحمد السرهندي قد أدرج فيه عوارف المعارف ضمنه لطائف المِنَن ومِنَن اللطائف، وهو حريّ بأن يقال: إنه من الفتوحات المكيّة أو من الإلهامات الملكية، قال رحمه الله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه العون، الحمد لله الذي أوضح لأحبابه سُبُل الهدايات، وفتح لهم باب الفهم عنه بسابق العنايات، وعصمهم من طريق الهوى وطروق الغفلات والغوايات، وخصّهم بشريف المكالمات ولطيف الإشارات، والصّلاة والسلام على سيدنا محمد رسول من فطر الأرض والسمٰوات، إلى كافّة الخلق بالدلالات الواضحة والآيات البيّنات.

وبعد، فإني قد كنت وقفت على سؤال ورد من جماعة من الهند مضمونه ما قول العلماء في حقّ أحمد السرهندي الكابلي القائل كذا وكذا بألفاظ كثيرة مسطورة في السؤال مدّعين أنها نُقِلت من كتابه المشهور، وقد كتب عليه إذ ذاك جماعة قائلون بكفره اغترارًا بظاهر بعض الألفاظ ولغير ذلك، فلمّا تأمّلته ظهر لي بحسب ما وصل إليّ وما قُدّر لي إذ ذاك من الفهم أن بعض عباراته لا يصدر إلّا من مجازف، بل بعضها يؤدّي إلى الكفر لا محالة، فلذلك امتنعت من الكتابة بعد الإلحاح عليّ في طلبها وحمدت الله سبحانه على ذلك إلى أن أراد الله سبحانه وتعالى إظهار الحقّ وإمحاق الباطل، فحرّك لذلك عالمًا يقال له الشيخ محمد بك فكتب رسالة ميّز فيها ألفاظ الشيخ المذكور رحمة الله عليه عن غيرها، وبيّن أن كتابه إنما هو بألفاظ فارسية، وأن فيما عُرّب منها في السؤال تغييرًا بالزيادة والنقصان، وتبديل بعض الألفاظ بالمكر والطغيان، ونقل عبارات الشيخ بأعيانها من الكتاب المذكور إعانة لمن طلب الوقوف عليها وإظهارًا لما

هو الصواب وتبرّعًا بالجواب عما أشكل ظاهره منها؛ إذ لم يكن ذلك واجبًا عليه ولا مندوبًا، كما ستقف عليه إن شاء الله تعالى، ثم أرسل بها إليّ لأكتب عليها، وقد كتب عليها وحيد دهره وفريد عصره شيخنا وبركتنا الشيخ أحمد البشبيشي أدام الله تعالى النفع به وفسح لنا في مدّته آمين؛ فاعتذرت إليه مرارًا ورُمْت ذلك فرارًا، فزاد الإلحاح وتقوى الاقتراح، فألزمت نفسي العمل بمقتضى قوله: شعر:

ما لا يكون فلا يكون بحيلة أبدًا وما هو كائن سيكون
سبق القضاء بما يكون بعلمه سيان منك تحرّك وسكون

فلاحَ الجواب وتيسّرت الأسباب، فشرعت مستعينًا بالملك الوهّاب راجيًا منه الحماية وإصابة الصواب، فقلت وبالله سبحانه التوفيق: قال رسول الله ﷺ: **«قد أجاركم الله من ثلاث خِلال: أن لا يدعو عليكم نبيكم فتهلكوا جميعًا، وأن لا يظهر أهل الباطل على أهل الحق، وأن لا تجتمعوا على ضلالة»**، رواه أبو داود.

ثم قلت: النفوس مفطورة على حبّ الحق، فهو مقصدها في جميع أنحائها لا تسكن إلّا لديه ولا تركن إلّا إليه، وله تفيض الأعين وتتحرك القلوب والألسن، ولولا ما يحول بينه وبينها من آثار الرعونات وشدّة ميلها إلى الشهوات لما انفكّت عنه وقتًا من الأوقات، فلذلك قوي الرجاء في الرجوع إليه ووقوع الاتفاق عليه، وحينئذ فلا يخفى على كل لبيب يقظ أن الشيخ أحمد السرهندي الكابلي وليٌّ من أولياء الله تعالى وله قَدَمٌ راسخ بمحافظته على الشريعة ومناظرته أهل الحقيقة، والدليل على ذلك إما محافظته، فلما شاع وذاع من شُهرة علمه بانتشار تلامذته وتلامذة تلامذته وأولاده.

وحَفَدته كلّهم علماء، ومنهم مَن بلغ درجة الأكابر حتى عَزَّ له النظير في غالب البلاد كإسلامبول وما وراء النهر ومصر وغيرها، وقد وفد منهم جماعة إلى الحرمين الشريفين ممن بلغ مكّة.

منهم العلم المشهور الشيخ فرخ قد كثر متابع له بها إلى الآن، فإنه كان المرجع بها.

ومنهم قطب أوانه وأنموذج زمانه شيخنا وبركتنا الشيخ محمد قاسم اللاهوري قُدِّس سرّه وروّح ضريحه آمين، قرأت أنا ورفيق لي عليه في المطول وأخبرنا أنه ختمه تدريسًا نيّفًا وستين مرة.

ومنهم الشيخ المتفنّن محمد النقشبند نزيل عين الزمان مددنا وبركتنا شيخنا الشيخ محمد بن سليمان كان يُعَظِّمه ويُكرمه غاية الإكرام، وما ذاك إلّا رعاية لمقام الشيخ أحمد رحمه الله بإكرام كل من ينتسب إليه لما عنده من زيادة العلم بكمال فضله وتحقق مقامه بمقتضى لا يعرف الفضل إلا ذووه.

ومنهم العلّامة الشيخ محمد مراد، ذكر أنه الآن بإسلامبول يُدَرِّس بها وأنه ذو أتباع.

ومنهم الشيخ المُحَقِّق العارف بالله تعالى الشيخ بدر الدين.

ومنهم العلّامة الشيخ يوسف الدين، ومنهم الوليّ العارف بالله تعالى الشيخ محمد معصوم، ذكر لي بعض الإخوان من مُدَرِّسي مكة المُشَرَّفة من أبناء الروم أنه اجتمع بهؤلاء الثلاثة، وكان كثيرًا ما يذكر الشيخ بدر الدين ويقول: ما رأيت في زماننا هذا مثله في كثرة علمه وعمله ومداومته على الذكر.

وأما الدليل على مناظرته لأهل الحقيقة، أن مَنْ له أدنى فهم يُدْرك أن عبارات كتابه أهّلَنا الله سبحانه وتعالى بفهمها وجعلنا من طلّابه ليست جارية على اصطلاح الفقهاء لأنها لا تصدر إلّا عن أرباب الأحوال، فهي دالّة على أنه من أهل الحقيقة عند من بصّره الله تعالى؛ لأن الكلام صفة المتكلّم وقد قالوا: اعرف الرجال بالحق ولا تعرف الحق بالرجال.

وقال الشيخ زروق رحمه الله تعالى في شرحه لحزب الشاذلي رحمه الله تعالى: واعلم أن الكلام صفة المتكلم وما فيك ظهر على فيك، إلى أن قال: وبالجملة إن أحزاب المشائخ صفة أحوالهم ونكتة مقالهم وميراث علومهم وأعمالهم وبذلك جروا في كل أُمورهم لا بالهوى، يعني أن جميع أقوالهم وأفعالهم ليست مقصودة لهم بنوع تكلّف أو نوع تصرّف؛ كما يدلّ عليه كلام الشيخ القشيري الآتي، بل جميع ما يقع منهم من الحركات والسكنات تصدر عنهم بحسب أحوالهم، فهي آثارها الدالّة عليها لا محالة، فظهر بهذا لمن ثبّته

الله تعالى ونوّر بصيرته أن سيدي الشيخ أحمد رحمه الله تعالى ثابت القدم فيما تقدم على أن جماعة منهم لم يصنفوا كتابًا حرصًا على امتثال ما كُلّفوا به من كتمان هذه العلوم، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

قال ابن عطاء رحمه الله تعالى في لطائف المِنن: كان أبو الحسن الشاذلي رحمه الله تعالى لم يصنع كتابًا، وكذلك شيخنا أبو العباس رحمه الله لم يصنع في هذا الشأن شيئًا، والسبب في ذلك أن علوم هذه الطريقة علوم التحقيق وهي لا تتحمّلها عقول عموم الخلق، ولقد سمعت شيخنا أبا العباس يقول: جميع ما في كتب القوم عبارات في سواحل من بحر التحقيق، انتهى المراد.

قوله: في سواحل... الخ، كناية عن بعدها عن أفهام أهل الظاهر لما يقصدونه من استعمال ألفاظ خاصّة بهم مُجْمَلة، والمعاني لمشكلة الظواهر تحاميًا عن الظهور الموجب لوقوع الخلاف منهم، فلهذا يجد من صنّف منهم كتابًا بالغ في كتمان معانيه بحيث لا يستعمل شيئًا مما استعمله غيره من المعاني إلّا على طريق الاتفاق، وحينئذ التمييز بين اصطلاح الفقهاء واصطلاحهم لا يكاد يخفى على أحد، فنعلم حينئذ أن كتاب العارف بالله تعالى الشيخ أحمد رحمه الله تعالى وأمَدّنا بمدده إنما هو في علوم الحقيقة، وأنه جارٍ على اصطلاح القوم ودالّ على كمال أحواله وعلوّ مقامه بلا ريب، هذا وإني أدين الله سبحانه وتعالى بذلك وبما عن شيخنا الشيخ محمد بن سليمان نفعنا الله تعالى به من أن الشيخ أحمد رحمه الله تعالى مجدد طريق القوم، وكفى بهذا الاستشهاد لمن وفّقه الله تعالى للتسليم وحسن الاعتقاد، وحيث ثبت ما له من المقام فلا يلتفت لمن أراد نفيه عنه.

قال الشيخ زروق رحمه الله تعالى في الشرح: فإن قلت: قد تكلم بعض الناس في الشيخ ابن سبعين كلامًا فاحشًا يوجب عدم اعتباره، فكيف يلتفت إلى علومه وأذكاره؟ قلت: لا يُقْبَل قول إلّا ببرهان، ولا يؤخذ شيء إلا بتبيان، وقد ثبت كونه من أهل العلم والعرفان ونقل كونه من أصحاب الحقائق والأحوال، بل حقّق ذلك جماعة ممن أتى بعده من الرجال، فلا يُلتفت إلى إنكار المنكر في إسقاط مرتبته، وكذا من كان على طريقه، فلَئِنْ كان للعلم حرمة فللعلماء

أيضًا حرمة، والموفق يلتمس المعاذير، والمنافق يتبع العيوب، بل يحدث بها بغير حق، ولا أجهل ممن يتعصب بالباطل ومنكر لما هو به جاهل، فانظر وفّقك الله تعالى وتأمّل في عبارة الشيخ زروق رحمه الله وما فيها من الفوائد النورانية، حيث ردّ قول المجرح بعدم البيان، ثم عارضه بمجرّد ثبوت صفة العلم له، ثم ثبت له كونه من أصحاب الحقائق والأحوال بمجرّد النقل، ثم حقّق له ذلك بمن بعده من الرجال حيث ذكروه بذلك من غير تعرّض لطول المدّة وقصرها، ثم أكّد الرد بقوله: فلا يلتفت الخ، ثم أشار إلى حكمه على مقتضى الشرع، وأنه لا خصوصية له بقوله: وكذا من كان على طريقته، ثم التفت إلى تعظيم جانب العلماء بمجرّد كونهم علماء للتحريض على ذلك، كما قابل ذلك بذمّ المنكر والتشديد عليه بجعله كالمنافق ومقابلة فعله بفعله الموفق، ثم ذمّ التعصّب ووصف صاحبه وذا الجهل المركب بكونهما لا أجهل منهما، فإذا علمت هذا فتأمّل أيضًا في اكتفاء الشيخ رحمه الله في الرد بمجرد ثبوت صفة العلم، فكيف بمن منحه الله تعالى فضيلة انتشاره في البلاد زيادة على ذلك، ثم في التفاته رحمه الله لثبوت كونه من أصحاب الحقائق والأحوال بمجرّد النقل، فكيف بمن كُتِبَت في مناقبه المجلّدات، وأثبتت له فيها أنواع الكرامات، وشهد له بذلك انتشار الآثار الدالّة على اتّصافه بذلك أي الانتشار، فإني قد رأيت مناقبه في مجلد ضخم، وأخبرت بثانية منها للشيخ محمد هاشم الكشمي، وقد كتب سيد علماء الهند جامع المعقول والمنقول المُلّا عبد الحكيم السيالكوتي ما لفظه:

إن التكلم على كلام الوارث للطريقة المحمّدية الشيخ أحمد السرهندي جهل وسفه ودلالة على عدم الوقوف على اصطلاحات الصوفية إلى آخر ما أطاله رحمه الله تعالى، وقد وضع على هذا الخطّ ختمه، وهو الآن بيد أولاد الشيخ رحمه الله تعالى، والذي نعلم الآن من نسخ كتابه المشهور في الحرمين الشريفين ثلاث نسخ: نسخة تامّة ثلاث مجلدات بالمدينة المُنَوّرة، ونسختان محزومتان بمكّة المُشَرّفة، ثم في اكتفائه رحمه الله بمجرد ذكر جماعة بعده، فكيف بمن مضى عليه زمان طويل بعد ذلك؟ فإن عمر الشيخ أحمد نوّر الله ضريحه نيّف وستون سنة، ومذ توفي إلى الآن نحو ستين سنة، فهذه نحو مائة

وخمس عشرة سنة باعتبار إسقاط مدّة بدايته على أن كثيرًا من أولياء الله محفوظون من وقت الرضاع في بطون أمّهاتهم فعليه، فهي نحو مائة وعشرين سنة، فكيف فيه التجريح بعد هذه المدة وبعد ما ثبت له من الاشتهار المتّصل بمن ذكر من كتابه وأولاده وتلامذته إلى يومنا هذا؟ فهل يخفى على أحد أن هذا إلّا باب إظهار الفساد؟ نسأل الله العظيم في دَرْئِه ورد كيد قاصده في نحره، ثم هل هذا السؤال إلا مزلّة ومغلطة لأهل الحرمين الشريفين حيث لم يذكروا فيه الشيخ رحمه الله معرّفًا بأوصافه، بل ذكروه مجهولاً خصوصًا مع ما أحدثوا فيه من التغيير والزيادة والنقصان، وهل هذا إلّا هوى للنفس واتّباع للشيطان؟ أما يخشى فاعلوه من تعجيل عقوبة الله تعالى غيرة منه عليه؟ أما يعتقدون الموقف والفضيحة بين يديه، وما أحسن ما قيل: شعر:

تذكّر يوم تأتي الله فردًا ... وقد نُصِبَتْ موازين القضاء
وهُتِكَتْ السّتور عن المعاصي ... وجاء الذنب مكشوف الغطاء

وأحسن منه وأبلغ منه وأسرع رشقًا في النحور قول: من يجمع الناس ليوم لا ريب فيه وإليه النشور، يعلم ما في السمٰوات وما في الأرض ويعلم ما تُسِرُّون وما تُعْلِنون، والله عليم بذات الصدور، لعمر الله أنهم لفي أمر لا ينادى وليده ولا يُفارق عتيده، وكأني بهم وقد انعكس عليهم الأمر، أفأمنوا مكر الله وصروف الدّهر؟ كيف وهو كما قيل: شعر

سرور الدهر مقرون بحزن ... فكُنْ منه على وجلٍ شديد
ففي يُمناه كأسٌ من لُجَيْن ... وفي يُسْراه قيدٌ من حديد

نعوذ بالله من مكر الله، نعوذ بالله من مقت الله، نعوذ بالله من سخط الله؛ ولا يخفى أن كلام الشيخ أحمد أسكنه الله تعالى في حظيرة قدسه ومتّعه بموارد أنسه ليس جاريًا على ظاهره كما تقدم، ولا يجوز له استعمال الألفاظ الظاهرة المعاني، حيث كان في هذا العلم لوجوب كتمانه. قال في روضة المريدين: قال جعفر بن محمد الصادق رضي الله تعالى عنهما: نُهِينا عن إظهار هذا العلم لغير أهله، كما نُهِينا عن الزّنا ولا إقامة لدين الله تعالى إلّا بهذا العلم، وقال: إن الله عزّ وجلّ فضح من باح بسرّه وعلمه إلى غير أهله. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: حَفِظْت عن رسول الله ﷺ وعائين فأما أحدهما فبثثته فيكم،

وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم[1]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إني لأعلم في قوله تعالى: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ﴾ [الطّلَاق: الآية 12] لو قلت لكفرتموني[2]. وعن عليّ رضي الله عنه قال: إن بين جنبيّ علمًا لو قلته لخضبتم هذه من هذه[2]، أرادوا رضي الله عنهم بذلك العلوم علوم الحقيقة، كما صرّح بذلك؛ فأهل التمكين لا يُظْهِرون معاني ألفاظهم، لأن جميعها متعلق بالله تعالى، فهي أسرار بينهم وبينه، ولهذا كان خطأ الحلاج وإباحة دمه من حيث إظهاره ما يكتم وإعلانه بما يسّر كما في حل الرموز، وفيه ما كل قلب يصلح للسر ولا كل صدف ينطبق على الدرّ، وقيل لأبي يزيد رحمه الله: ما لنا لا نفهم كثيرًا ما تقول؟ قال: لأن كلام الأخرس لا يفهمه غير أمه.

قال الشيخ القشيري رحمه الله في الرسالة: وهذه الطائفة يستعملون ألفاظًا فيما بينهم قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم بعضهم من بعض، والإجمال والستر على من باينهم في طريقتهم لتكون معاني ألفاظهم مشتبهة على الأجانب غيرةً منهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها؛ إذ ليست حقائقهم مجموعة بنوع تكلّف أو مجلوبة بضرب تصرّف، بل هي معاني أودعها الله تعالى في قلوب قوم واستخلص لحقائقها أسرار قوم، ويقولون: الأسرار معتقة عن رقّ الأغيار، ويُطلق السرّ على ما يكون مَصُونًا بين العبد والحقّ سبحانه وتعالى من الأحوال، وعليه يُحمل قول من قال: أسرارنا بكر لم يفتضهن وَهْمُ واهِم، انتهى ملخّصًا. فمن علم أن قصدهم كتمان السرّ والإجمال والستر، وأن ظاهر اللفظ غير مراد لم لا يعترضهم قطعًا، فالمعترض على وليّ الله سبحانه وتعالى الشيخ أحمد رحمه الله باعتياده مرتكب ما لا يحلّ غير عالم بمقاصدهم.

هذا وقد تلقّت العلماء رضي الله عنهم ونفعنا بهم خلفًا عن سلف أقوال هذه الطائفة من غير التفات منهم إلى أشكال ظواهرها، مع علمهم بحقائقها وما تقتضيه من الاتّحاد والحلول والتجسيم وغيرها، لعلمهم باستحالة كون شيء من

---

(1) رواه البخاري في صحيحه بلفظ: «حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم».

(2) هذا القول لم أجده فيما لديّ من مصادر ومراجع.

ذلك مقصودًا لهم، وهو معنى قول الشيخ زروق رحمه الله، فلذلك قُبِل كلامهم، أي على ما هو عليه، وإن كان مشكلاً، فإذا النظر إلى كمال أحوالهم، لا إلى ظواهر أقوالهم، وهذا كتاب كمال أهل الطريقة ومعدن الحقيقة الشيخ عبد الكريم بن إبراهيم الجيلي قُدِّس سرّه ونوّر ضريحه المُسمّى بالإنسان الكامل وسائر مؤلفاته ومؤلفات العارف بالله تعالى الشيخ محيي الدين بن عربي الحاتمي الطائي قُدِّس سرّه، وسائر كتب القوم إلى يومنا هذا تُشْتَرى بأغلى الثمن، وتُسْتَكْتب ويُتْعَب في تحصيلها ومقابلتها مع العلم بما فيها من الإشكالات المتكاثرة، **منها** في الإنسان الكامل قوله: بانقضاء عذاب جهنّم وذهاب أثرها وعود إبليس لعنه الله إلى ما كان عليه من مكان القرب إلى الله تعالى، **ومنها** ما في عينيّته قوله: إن السبع الطِّباق تحت قوائمي ورجلي على الكرسي وسقف بيتي العرش. **ومنها** ما في مواقع النجوم لابن عربي رحمه الله: إن لله سبحانه لسانًا يتكلّم به وأذنًا يسمع بها. وأما مشكلات الفتوحات، فأشهر من أن تُذْكَر.

فلو نظر العلماء رحمهم الله إلى ظواهر هذه الكتب لما توقّف أحد منهم في الحكم بتكفير مؤلّفيها، لكنهم لما عَلِمُوا أحوالهم لم يلتفتوا إلى المشكل من أقوالهم، وقد شاع هذا والحمد لله حيث لا يكاد عالم يجهله الآن حتى أنسيت إشكالاتهم وكأنها لم تكن، وأقبل الناس عليها لذلك بالإقبال التامّ حتى صار العلماء يتبرّكون ويعتنون بمطالعتها، بل وتدريسها حتى لا يكاد يخلو عالم من بعضها ومن الاطّلاع عليها، فإن قلت: إذا كان عدم التعرّض لا يكاد يجهل، فكيف قلت في أول الرسالة: وقد كتب عليه جماعة قائلين بكفره اغتراراً بظاهر بعض الألفاظ؟ وهل هذا إلّا تعرُّض منهم؟

قلت: قد مرّ قريبًا بأن أهل السؤال دلّسوا ولبسوا وأنهم متّبعون أغراضًا فاسدة، وأنهم لم يعرفوا الشيخ رحمه الله، بل ولم يذكروا من نسبه شيئًا لعلمهم لما فيه من صريح مناقضتهم، فإن والد الشيخ وجده رحمهم الله قد ثبتت لهما الولاية ونسبه يتّصل بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد أخذ الطريقة عن والده وجدّه بالسند المتّصل إلى سيد العارفين بالله تعالى الشيخ عبد القادر الكيلاني، كما في مناقبه قُدِّس سرّه لتلميذه العارف بالله الشيخ

بدر الدين غير المتقدم، فلمّا لم يذكروا شيئًا من هذا، بل حذفوه، وقولنا: حذفوه لغوي تجهيلاً لتتميم غرضهم بزعمهم اقتضى ذلك تكفيره لا محالة؛ لأنه على هذا التقدير ليس ممّن لا يتعرّض لهم، بل هو فردٌ من أفراد الناس، فلو ذُكِر موصوفًا بأوصافه التي اشتهر بها أو بعض النسب، ولَوْ الفاروقي فقط، ونُقِلت ألفاظه بعينها من غير تغيير لما تعرض له أحد، وما كفره أحد منهم قطعًا.

ألَا ترى أنا لو سُئِلنا عمّا في مواقع النجوم بصورة ما يقول علماء الدين رضي الله عنهم في حقّ محمد بن عربي القائل بأن الله سبحانه لسانًا يتكلّم به، وله أذن يسمع بها، أو عن مقالة الشيخ عبد القادر رحمه الله: رأيت ربّي بعين رأسي بصورة ما يقول العلماء رضي الله عنهم في حقّ عبد القادر ولد أمّ الخير القائل: رأيت ربي بعين رأسي، فهل يتوقف أحد في تكفير المسؤول عنه على ما فرض جهالته بخلاف ما لو قيل في الأول في حقّ الوليّ العارف بالله تعالى الشيخ الأكبر محيي الدين بن محمد بن عليّ بن محمد علي بن العربي قُدّس سرّه ونوّر ضريحه، وفي الثاني في حقّ سيّد العارفين وقُبْلة الوافدين الشيخ محي الدين عبد القادر الجيلاني جعلنا الله سبحانه في بركاته وإمداده حيث لم يتعرّض له أحد من العلماء كما تقدم، وفيما نحن بصدده كذلك لما كان السؤال بصورة ما يقول العلماء رضي الله عنهم في حق أحمد السرهندي الكابلي لم يتوقف أحد في تكفيره، وما توقف إلّا من كان له علم بشهرته أو بطرف منها أو كان له معرفة باصطلاح القوم، فاستدلّ ببعض عبارات السؤال على مقامه بخلاف ما لو كان بصورة الشيخ العالم العارف بالله تعالى مسلك المريدين ومُوصل السالكين الجامع بين الطريق والحقيقة من ملأ علمه الآفاق شيخ وقته على الإطلاق الشيخ أحمد السرهندي الكابلي الفاروقي النقشبندي ابن العارف بالله تعالى الشيخ عبد الأحد ابن وليّ الله العارف بالله تعالى الشيخ زين العابدين نفعنا الله سبحانه وتعالى به القائل كذا وكذا بألفاظه بعينها أو تعريبها، حيث لم يتعرض لها بلا رَيْب.

فإن قلت: قال الشيخ عبد الوهاب الشعراني رحمه الله تعالى: قد اندرس العمل بأخلاق القوم في هذا الزمان حتى لا يكاد العبد يجد أحدًا من المتشيخين

فيه يتخلّق بشيء من أخلاق القوم، فإن مقام الإرادة قد عزّ في هذا الزمان، فكيف بمقامات العارفين، انتهى. فعلى هذا لا يكون الشيخ أحمد من المشائخ، ولا كتابه مثل كتبهم.

قلت: ليس في عبارته ما يقتضي انقطاعهم ليلزم ذلك، بل مفهومها عزّتهم كما صرّح به في آخر مقدمته بقوله: لم أقصد بقولي في كثير من الأخلاق لم أرَ له فاعلاً الفخر، وإنما أقصد به بيان عزّته ليلقي الإخوان بالهم إلى الاهتمام بتحصيله والتخلّق به لا غير على أنه ذكر في الأربعين ومائة أن أصحاب النوبة سبعون، وأنهم بمصر الآن سنة ستين وتسعمائة.

فإن قلت: ليس أهل هذا الزمان كالمتقدمين، فلا يستحقّ الشيخ أحمد أن يُعامل معاملتهم، فتسلم له أقواله.

قلت: إن أردت سلب المشابهة عن المجموع فمسلم، وليس الكلام فيه وإن أردته عن كل فرد فرد فغير مسلم، فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«في كل قرن من أمّتي سابقون»**[1]، وعنه ﷺ أنه قال: **«إنما مَثَلُ أمّتي كمثل حديقة قام عليها صاحبها فاجتثّ رواكبها وهيّأ مساكنها وحلق سعفها فأطعمت عامًا فوجاً فلعلّ آخرها طعمًا يكون أجودها قنوانًا وأطولها شمراخًا، والذي بعثني بالحقّ نبيًا ليجدنّ ابن مريم من أمّتي خلقًا من حواريه»**[2]. وعنه ﷺ أنه قال: **«خير أمّتي أوّلها وآخرها وفي وسطها الكدر»**[3]، وعنه ﷺ أنه قال: **«مثل أمّتي مثل المطر لا يُدرى أوله خير أم آخره»**[4]، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة

---

(1) رواه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم (4375) [3/ 140]؛ وأورده الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، في الذكر الخفي [1/ 369].

(2) رواه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، ذكر فصول في الأمثال، حديث رقم (6403) [4/ 130]؛ والحكيم الترمذي في نوادر الأصول، في أن خير هذه الأمة أولها...، حديث رقم (6403) [4/ 130].

(3) رواه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، الأصل الثاني والعشرون والمائة...، [2/ 92]؛ وأورد الحديث غيره.

(4) رواه ابن حبان في صحيحه، ذكر خبر أوهم مَن لم يحكم صناعة الحديث...، حديث رقم (7226) [16/ 209]؛ والترمذي في سننه، (باب 6) حديث رقم (2869) [5/ 152]؛ ورواه غيرهما.

جدًا على أن هؤلاء القوم لا يغيّرهم الزمان، فلا فَرْق بين المتقدّم والمتأخّر والظاهر والخفي والصديق والولي في أن الزمان لا يكدّر أنوارهم ولا يَحُط مقدارهم، فإنهم مع الموقت لا مع الأوقات، وعن بعض العارفين أنه قال: إن لله تعالى عبادًا كلّما اشتدّت ظلمة الوقت قويت أنوار قلوبهم، فهم مثل الكواكب كلّما قويت ظلمة الليل قوي إشراقها، كما في لطائف المِنَن. وأما كتابه نفع الله تعالى به ويسّر لنا سلوك طريقته، فغالب الظنّ فيه حيث لم أطّلع على جميعه أنه لو كان مُعْربًا لفاق أو ساوى لما يظهر من دقّة ألفاظه التي وقفت عليها، ولعمري إنه لحريٌّ بقوله: **شعر**:

ما ضرّني إن لم أكن متقدّمًا فالسبق يعرف آخر المضمار(1)

وها أنا أذكر لك ما تستكنّ به نفسك وترضاه وتقبض به إن شاء الله عنان التعرّض والاعتراض، قال الشيخ زرّوق رحمه الله في وصية عند عدّ الشبه: ومن ذلك قول بعض الصوفية: أنا هو وهو أنا مما يوهم الاتّحاد والحلول، وقد وقع كثير من هذا النوع لابن الفارض وابن العربي والتستري وابن سبعين مع أمانتهم في العلم وظهورهم في الديانة، فعلى المؤمن في ذلك أن يكون قائمًا مع الحق بالكلام في القول الأول، لا في القائل في مثل أولئك القوم، وما كان من كلامهم موافقًا للكتاب والسنّة فأنا أعتقده فأنا أَكِلُ علمه لأربابه منزّهًا قلبي عن اعتقاد ظاهره وإياهم كذلك، انتهى مختصرًا.

وقوله: وإياهم كذلك أي وأنزّههم أيضًا عن اعتقاد ظاهره، فإنهم لا يعتقدونه لأنهم منهيّون عنه كما تقدم. وقال الشيخ الشعراني رحمه الله في لطائف المِنَن: وقد يكون سبب الإنكار جهل المنكر بمصطلح القوم وعدم ذوقه لمقاماتهم، فالعاقل من ترك الإنكار وجعل ما لم يفهمه من جملة مجهولاته، لا سيّما ولن يبلغنا عن أحدٍ منهم ما يخالف الشريعة أبدًا، وربما تكلم العارف في شعره أو غيره على لسان الحقّ تعالى، وربما تكلّم على لسان رسوله ﷺ،

---

(1) هذا البيت هو للشاعر الأندلسي لسان الدين بن الخطيب (محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني اللوشي الأصل، الغرناطي الأندلسي، أبو عبد الله المتوفّى سنة 776 هجرية، والبيت من البحر الكامل وتفعيلته:

كمل الجمال من البحور الكامل متفاعلن متفاعلن متفاعلن

وربما تكلّم على لسان القطب، فيظنّ بعضهم أن ذلك على لسانه هو فيبادر على الإنكار، وقد سمعت سيدي عليًا الخواص يقول: أقلّ درجات الأدب مع القوم أن يجعلهم المنكر كأهل الكتاب لا يصدّقهم ولا يكذّبهم، وكان سيدي علي بن وفا يقول: التسليم للقوم أسلم، والاعتقاد فيهم أغنم، والإنكار عليهم سم ساعة في ذهاب الدين، وربما تنصّر بعض المنكرين ومات على ذلك، نسأل الله تعالى العافية. اهـ.

فإن أردت يا أخي عدم الإنكار فاْجل مرآةَ قلبِكَ، فإنك تشهدهم من خيار الناس ويقلّ إنكارك، وإلّا فمن لازمك كثرة الإنكار لأنك لا تنظر في مرآتك إلّا صورة نفسك، فافهم. اهـ مختصراً.

وقال في حلّ الرموز بعد كلام: ولقد أنصف أبو حامد الغزالي حيث أجرى هذه الطائفة من الرجال في كتابه المنعوت بإحياء علوم الدين، فقال عند ذكرهم: هؤلاء قوم غلبت عليهم الأحوال، فقال أحدهم: سبحاني، وقال الآخر: ما أعظم شأني، وقال الآخر: أنا الله، وقال الآخر: ما في جبّتي إلّا الله، فهؤلاء قوم سكارى ومجلس السكارى يُطوى ولا يُحكى، معناه ونُسَلِّم إليهم أحوالهم ولا نردّ عليهم أقوالهم؛ لأن كلامهم نطق عن ذوق، وذوق عن شوق، ومن ذاق فقد عرف، ومن لم يذق فلا حرج عليه إذا سَلَّم واعترف. اهـ كلامه المقدّس رحمه الله.

وقال في مقدمة شرح تائية الإمام العارف بالله تعالى ابن حبيب الصفدي: ويجب تحسين الظنّ بأولياء الله تعالى، فإن إساءة الظن بعموم المؤمنين حرام، فكيف بأولياء الله تعالى، ولله تعالى في خلقه أسرار لا اطّلاع للعوامّ عليها، بل يطّلع عليها من شاء من خاصّته، أنظر إلى ما وقع من الخضر عليه السلام من خرق السفينة وقتل الغلام، وقوله بعد ذلك: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىۚ﴾ [الكهف: الآية 82] فسلّمْ لهم حالهم ولا تتابعهم فيما لا يوافق ظاهره الشرع، ولقد صنّف فيهم أهل العناية بهم مصنّفات ونصروهم فيها، وأوّلوا أحوالهم وأقوالهم المخالفة لظاهر الشرع، ليس هذا محل ذكره، وشرط جواز الاعتراض أن يكون ممن أحاط بعلم الظاهر والباطن وإلّا فهو قاصر، فيسعى في إصلاح نفسه أولاً. اهـ.

وذكر شيخنا السيد أحمد الحموي نفعنا الله ببركته وبركة علومه آمين، في ذيله على كتابه درر العبارات في آخر جواب أجاب به عن سؤال وَرَد إليه من زبيد عن ألفاظ وردت مشكلة في أشعار مشائخ الطريقة العارفين بالله تعالى، فقال بعد أن أجاب بتخريج ذلك على الاستعارات والتمثيلية ما نصّه:

فإن عجزت عن التخريج على هذا المنوال وعَسُرَ عليك انتزاع حالة تطابق بها الحالة المنتزعة من الشاعر، فأعتقد أن ذلك هو الواقع في نفس الأمر وإن قَصُر إدراكك عنه فسلِّم لأهل الله، واعتقد براءتهم ونزاهتهم من كل عيب ونقص، وإيّاك أن يخطر ببالك ما يقع فيه كثير من الناس ممن حَرُمَ التوفيق من حمل كلامهم بفهمه القاصر ونظره الفاتر على غير مرادهم مما لا يليق بالجناب الإلـهيّ، ثم يجعل ذلك سببًا للوقيعة فيهم من غير مستندٍ له في ذلك إلّا محض جهله وقصور عقله وظنّه أن فهمه وعقله متناهٍ في الكمال بحيث لا يقصر عن شيء أصلاً، بل كلّ ما خرج منه فهو باطل ومُحَال، فإن ذلك والعياذ بالله منشأ الحرمان والخُسْران، ومِنْ أين يجب أن لا يهب الله لأوليائه إلّا ما يدركه عقل هذا الجاهل القاصر، بل ما مقدار عقله بالنسبة للعلوم الكسبية فضلاً عن الوهبيّة!.

وإياك أيضًا حيث عجزت عن التنزيل على هذا القانون أن تبالغ في التكلّف والتأويل والحمل على ما تعتقد من المعاني كما يفعله كثير من المحبّين المعتقدين، وإن كان مقصدهم في ذلك جميلاً وغرضهم صحيحًا لكنه يؤدّي إلى ارتكاب تكلّفات باردة مهملة تُخْرِجُ الكلام عن رونقه وبهجته وتُؤدّي إلى حلّه على معانٍ في غاية الركاكة والسّفَالة، فترك ذلك والإعراض عنه وتلقّي الكلام بالقبول والتسليم والاعتقاد التامّ على سبيل الإجمال وعدم العرض لمعانيه والاعتراف بالعجز عنه كما هو طريق السّلف رحمهم الله من التفويض في متشابه القرآن حتى يفتح الله تعالى بالمعاني الصحيحة ذوقًا أحسن وأسْلَم.

قلت: وما يدلّ على أن كلامهم رضي الله عنهم ليس مجريًا على ظاهره ما حُكِيَ أن الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي قُدِّس سرّه لما أنشد قوله:
شعر:

يـا مَـن يـرانـي ولا أراه   كـم ذا أراه ولا يـرانـي

قال بعض إخوانه: كيف تقول أنه لا يراك وأنت تعلم أنه يراك؟ فقال له مرتجلاً: شعر:

يـا مَـن يـرانـي مـجـرمًـا ولا أراه آخـــــــــذًا
كـم ذا أراه مـنـعـمًـا ولا يـرانــي لائــذًا

قال بعض المشائخ: من هذا وشبهه تعلم أن كلام الشيخ وأمثاله مُؤوّل وأنه لا يقصد ظاهره، وإنما له محامل تليق به، وكفاك شاهدًا هذه الجزئية الواحدة، وأحْسِنْ الظنّ ولا تنتقد، بل اعتقد وللناس في هذا المعنى كلام كثير والتسليم أسلم، والله سبحانه بكلام أوليائه أعلم، انتهى كلام شيخنا نفع الله به.

قلت: إنما شبّه شيخنا رحمه الله التفويض في متشابه القوم بالتفويض في متشابه كلامه تعالى في قوله: كما هو طريق السلف الخ، لأن هؤلاء القوم تخلّقوا وتحقّقوا بجميع الأسماء والصفات إلّا لفظة الجلالة كما هو مُقرّر، ومعنى التخلّق تحلّي العبد بتلك الأسماء والصفات بقدر الإمكان.

وأما التحقّق، فهو ذهاب تعيّن صفة العبد وظهور صفة الله تعالى فيه. قال بهاء الدين في شرح أسماء الله تعالى: وأما التحقّق بحقائقها فذلك بتجلّي الاسم على سر العبد وسريانه في روحانيّته سريان النار في أعماق الجمرة بحيث يفنى تعيّن العبد وتكون حقيقة الاسم المُتَجَلّي بعينها هي حقيقة العبد حتى يرتفع التمييز في مشاهدته، بل تترتّب أحكام الحقيقة الاسميّة على الحقيقة العبديّة إن بلغ التحقّق بها كمالها؛ كما قيل: شعر:

أنا مَنْ أَهْـوَى ومَـنْ أَهْـوَى أنا نـحـن روحـان حـلَلْنَـا بَـدَنـا
فـإذا أَبْـصَـرْتَـنِـي أَبْـصَـرْتَـهُ وإذَا أَبْـصَـرْتَـهُ أَبْـصَـرْتَـنـا[1]

والإشارات إلى هذه المرتبة كثيرة في مقالات القوم باللغات المختلفة، وهذا أمر ذوقي لا يسع طور العبارة إكمال شرحها، ولا يفي إلّا بشيء يسير من

---

(1) هذان البيتان هما للحلاج (الحسين بن منصور) المقتول سنة 309 هجرية من مؤلفاته (الطوسين) (هوهو) (اليقين) وغيرها. والبيتان من بحر الرّمل وتفعيلته:
رمـل الأبـحـر تـرويـه الـثـقـات فـاعـلاتـن فـاعـلاتـن فـاعـلاتـن

الإشارات بها. اهـ. وبهذا تبيّن وجه التشبيه، وبقوله حفظه الله تعالى: وإياك أيضًا أن تبالغ في التكلّف والتأويل الخ، وبما تقدم من وجوب كتمان هذا العلم تَعْلم أن تعرّض الفقهاء لكلامهم بالشروح والتحشية والجواب عن إشكالاتها مما لا ينبغي لما في جميع ذلك من المخالفات لمقصودهم.

نعم إن أرادوا بذلك تسهيله على أهله كما فعله القشيري رحمه الله تعالى حيث قال في باب شرح ألفاظهم: ونحن نريد بشرح هذه الألفاظ تسهيلاً لفهم من يريد الوقوف على معانيها من سالكي طريقهم ومتّبعي سننهم، أو كان ذلك شفقةً منهم على العوامّ من اعتقادهم ظواهرها، فلا بأس لكن قد سلك هذين المسلكين جماعة، فلا احتياج إليهما الآن، إلّا أن يكون اصطلاح حادث فلا بأس، فإن القوم لم يصطلحوا على وضع، وإنما اصطلحوا على استعمال الألفاظ المخصوصة، بمعنى أن كلاًّ منهم يستعملها في معانٍ يضعها لها لما علمت من حِرْصهم على الكتمان، والاصطلاح على معنى واحد يفوته وتوضيح ذلك أنك تجد شُرّاح ألفاظهم يذكرون للفظ معاني كثيرة، وقد يجمع ما بين كتابين أو ثلاثة من المعاني للفظة واحدة، فلم تجدها تتفق أصلاً، فيكون المجموع لذلك اللفظ، فمن ذلك العبودية.

قال الشيخ القشيري رحمه الله تعالى في كتابه: «منشور الخطاب العبودية موافقة الأمر ومفارقة الزجر، العبودية: ترك التدبير ورؤية التقصير العبودية رفض الاختيار بصدق الافتقار، العبودية: أداء ما هو عليك وشكر ما هو إليك، العبودية: حسن القضاء وترك الاقتضاء. اهـ.

وقال الشيخ جمال الدين أبو القاسم القاز آبادي في كتابه خلاصة الحقائق: قال الكتاني رحمه الله: العبودية ترك الاختيار وملازمة الذلّ والافتقار، وقال ذو النون المصري: العبودية أن تكون عبده على كل حال كما أنه ربّك في كل حال. وقال أهل الإشارة: العبودية التفويض إلى الخبير البصير ورؤية التقصير في طاعة الملك القدير. وقال عالم: العبودية: أن يرضى العبد بما يفعل الربّ. وقال أبو عثمان رحمه الله: العبودية اتّباع الأمر على مشاهدة الآمر. وقال عيسى عليه السلام: العبودية ترك الدعوى واحتمال البلوى وحبّ المولى. اهـ.

وهكذا في غالب ألفاظهم، وإنما اقتصر بعضهم على معنى واحد تسهيلاً لطالب ذلك كما تقدم عن القشيري رحمه الله. قال ابن عطاء رحمه الله في لطائف المِنَن: قال الجنيد: دخلت على السري السقطي فوجدته متغيّرًا؟ فقلت: ما بالك يا أستاذ متغيرًا، فقال: دخل شاب آنفًا، فقال: ما التوبة؟ فقلت: أن لا تنسى ذنبك، فقال: بل التوبة أن تنسى ذنبك، فما تقول أنت يا أبا القاسم؟ فقلت: القول عندي كما قال الشاب، لأني إذا كنت في حال الجفاء ثم نقلني إلى حال الصفاء فذِكْر الجفاء وقت الصفاء جفاء، فقال الشيخ رحمه الله: كلام السري أتمّ من كلامهما، كلامهما يخصّ حالهما، وكلام السري مهيع مورد السالكين. اهـ مختصراً، فظهر أنه لا حَصْر في الاصطلاح، وأن الكلام صفة دالّة على حال المتكلّم كما تقدم، وعليه فلا حصر لاصطلاحاتهم كما لا حَصْر لأحوالهم، لا اعتراض على من تعرّض للبيان بقصد ما تقدم إذا كان أهلاً لذلك هذا.

وأما توقف الفقهاء والمشائخ عن المسارعة إلى التكفير وإيجابهم العمل بما يقتضي نفيه، وإن تكرّر المثبت بحيث يكون النافي عشر عشيره، وتصحيح القول بعدم تكفير أهل البدع وترجيحه، فلا يخفى كثرة النقول في ذلك على من طالع كتب الفروع والعقائد وشفاء القاضي عياض رحمه الله، غير أنها ليست مما نحن بصدده، وإنما فيها استلزام كون عدم التعرّض للشيخ رحمه الله أولويًا، والكلام فيما نحن بصدده كثير لكن فيما ذُكِر كفاية لا أوردناه من تنبيه الغافلين وتحذير المتعصّبين عن الوقوع في المهالك بالتعرّض للشيخ أحمد رحمه الله بالسوء المخالف لقوله ﷺ: «**اذكروا موتاكم بخير**»[1]، والاعتراض عليه بما لا عِلْم لهم به، أو التعرّض لذرّيّته بالأذيّة، فإن إكرامهم إكرام له وأذِيّتهم أذِيّة له مستلزمة للدخول فيمن آذنه الله سبحانه بحرب، كما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله عزّ وجلّ قال: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب**»[2] الحديث بطوله. قال المسعودي رحمه الله في شرحه:

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لديَّ من مصادر ومراجع.
(2) رواه البخاري في صحيحه، باب مَن جاهد نفسه في طاعة الله، حديث رقم (6137) [5/ 2384].

فالذي يتلخّص من كلام علماء الشريعة والحقيقة أن الولي هو المتقرّب إلى ربّه تعالى بالعلم والعمل. اهـ.

فمَن مَنَّ الله سبحانه وتعالى عليه بالإتقان ومخالفة النفس والشيطان تنبّه لمراقبته تعالى وتدارك ما أحدثه من الخلل والنقصان، ومن خُذِل عُطّلت حواسه وَبَاءَ بالخسران، ولا يخفى أن سعي أهل السؤال إنما هو تكثير أجوره ورفع درجاته، نفعنا الله تعالى ببركاته، كما قال الشيخ الشعراني رحمه الله حين وقع له مثل هذا، حيث قال: إن حُسّادي يُحَرّفون عني مسائل لم أقل بها قطّ، ثم يكتبون بها سؤالات يستفتون عنها العلماء فيفتون بحسب السؤال، ثم يدورون بخطوط العلماء على الناس فيحصل لي من ذلك أجور لا تُحْصَى من كثرة الوقوع في عرضي بغير حق، فلو أني كنت مؤاخذًا أحدًا من هذه الأمّة لما رضيت يوم القيامة بأعمال واحد منهم طول عمره في غيبة واحدة.

قلت: وأوفى دليل على علوّ مقام الشيخ أحمد رحمه الله رفع الدرجات بعد الممات باستدامة العمل بحيث رزقه العلم خصوصًا، وهو في الانتشار إلى يومنا هذا، والولد الصالح خصوصًا وهو متعدّد وأذِيّة الخلق خصوصًا، وهي عامّة له ولذُرّيّته فتوفر ابتداء هذه الأسباب مع ما يلحقه من عموم دعاء الخلق وخصوصه دليل وخبر ظاهر على ما ذكر، ثم لما مضى شهر بعد كتب هذه الرسالة وفد رجل يقال له البرزنجي مكّة المُشَرّفة، وكان القائل بكفر الشيخ رحمه الله وجعلنا في بركاته، ثم أرسل إليّ بالسلام قائلاً: بلغني أنكم كتبتم رسالة فمرادي الوقوف عليها، وكان ظنّي أنه إذا اطّلع عليها يطلب بيان ما ذُكِرَ فيها من الأحاديث.

وما أُدّعِيَ في السؤال من التغيير والتحريف وما ذُكِرَ من النقول الدالّة على عدم التعرّض للشيخ رحمه الله، وما نُقِلَ عن كتب القوم من المشكلات، وما ذُكِرَ من الوقوف على مناقب الشيخ رحمه الله وتعدّد نسخ كتابه وصحة الأخبار بالوافدين إلى مكّة المُشَرّفة من أولاد الشيخ رحمه الله وتلامذته، وما ذُكِرَ من النقول للاستشهاد والتنظير وغيرها للوقوف على جميع ذلك، والإيقان لما أن هذه جادة أهل الإنصاف وترجيح للحاسّة الباطنة على الظاهرة، ولذلك سمحت

نفسي بإرسالها إليه حالاً رجاء ظهور الحقّ ووقوع الاتّفاق عليه، فلما بَلَغَتْه بادر إلى مطالعتها وأمر بكتبها، فكتبها له شخص، ثم أتاني بها فسألته: هل كتب مناهيها؟ قال: لا، فقلت: لا بُدّ من كتبها فإنها تتمّاتها، ارجع إليها واذكر له ذلك، فراح ثم رجع فقال: كلّمته فأبى، وقال: ما يحتاج؟ فقلت له: وهل قابلها؟ قال: لا، قلت: إذًا هي غير الرسالة لما هو مُقرَّر من تحريف كتبة الزمان ولما وقع بين الحاشيتين من انعكاس الرجحان.

ولما حصل لي ما هو قريب من اليقين من أنه مفتٍ لأهل السؤال ومُعِين لهم في التغيير لينقل عني ما ليس من المقال، وليجدْ للبحث فيه المجال؛ إذ هي بدون ذلك مُحَصَّنة بالوالي المتعال وأشدّ على شأنهم من وَقْعِ النّبال كتبت هذه الكتابة سائلاً من فضل المُطَّلِع عليها أن لا يعتمد على المُجَرَّدة من المناهي ومن الزيادة، وأنه إذا وجد عليها كتابة قادحة فيها تعرّضات على من يَتّقي الله تعالى ويخشاه من العلماء، فإنْ كانت صوابًا فأنا أوّل من يُذْعِنُ له ويعتقدها، وإلّا فيعلم المُطَّلع عليها براءتي منها، ويعتقد الصواب هذا، وقد كتب الشيخ محمد بيك نسخة من هذا قبل هذه الزيادة، فهي أيضًا صحيحة، وإن كان تاريخها مثل المغيرة، فإن الفَرْق ظاهر لوجود المناهي في هذه دون تلك، وأيضًا تُقابَل مع هذه، فإنها لا تُخالِفُها إلّا بزيادة المناهي هذه، وفي أوّلها وآخرها بعض ألفاظ قليلة لا يختلف بها المعنى.

والحاصل أن نسبة ما يُخالف هذه إلي غير صحيحة أصلاً، ومما يُفَرّق به أيضًا بين المُغَيَّرة وهذه التاريخ، فإن تاريخ المُجَرّدة عن المَنَاهي هكذا تحريرًا قُبَيْل فجر يوم الجمعة مستهل شهر جمادى الآخرة سنة أربع وتسعين وألف، وتاريخ المُعْتَمدة ما ستراه قريباً، والله سبحانه وتعالى وليّ التوفيق والحمد لله ربّ العالمين أوّلاً وآخراً، وباطنًا وظاهراً وهو حسبي ونِعْم الوكيل، ولا حولِ ولا قُوّة إلّا بالله العَليّ العظيم، قال الفقير إلى الله تعالى حسن بن مراد التونسي الحنفي عفى الله عن الجميع بمَنّه وكرمه آمين، وصلّى الله على سيّدنا محمد النور الذاتي السّاري في جميع آثار الأسماء والصفات، وعلى آله وصحبه وسلّم: نَجزت قُبَيْل عصر السبت ثامن شهر الله تعالى رجب الأصمّ سنة أربع وتسعين وألف.

رسالة الشيخ العلامة والعُمْدة الفَهّامة منبع العلوم والمعارف منشأ الأسرار واللّطائف، معدن الدقائق الفرعيّة والأصليّة، مخزن الحقائق الشرعيّة والعقلية، قدوة فُحُول العلماء، أسوة أعاظم الفضلاء، مظهر الألطاف الإلـهيّة، ومصدر الأسرار اللامتناهية الشيخ أحمد البشبيشي المصري الأزهري الشافعي رحمه الله تعالى ونوّر ضريحه، المُتوفى سنة 1096 ست وتسعين وألف، وتأريخ وفاته: مات البشبيشي هكذا قال في خلاصة الأثر.

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله سبحانه على نِعَمِه المُتكاثرة وأشكره على آلائه المتوالية المتظافرة، وأصلّي وأسلّم على أفضل العالمين سيّدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدِّين.

أمّا بعد، فقد وقفت على هذه الرسالة التي وضعها الفاضل الشيخ العارف بالله تعالى أحمد الفاروقي النقشبندي، فوجدته قد أجادَ فيما أفادَ، وبيّن اصطلاح الشيخ ومقاصده بكلام الشيخ نفسه في مواضع متعدّدة من مكاتيبه، ولا شُبْهَة في أن الألفاظ المُصْطَلح عليها حقيقة عند أهلها فيما اصطلحوا عليه، ولا تدلّ على غيره إلّا مجازًا، فألفاظه بحسب اصطلاحه لا تدلّ إلّا على معانٍ صحيحة لا مخالفة في شيءٍ منها، لما وردت به الشريعة المُطَهّرة، وحيث كانت كذلك فلا تحتاج إلى تأويل أصلاً، فالحكم بتكفيره مبنيٌّ على الجهل باصطلاحه ومقاصده، وقد صرّح غير واحد بأنّ الجاهل باصطلاح الصوفيّة لا يجوز له أن يَخُوض في كلامهم؛ لأن ذلك يُوقِعُه في رَمْي أولياء الله تعالى بالكفر والزندقة، كما وقع ذلك لغير واحد، ومنهم الشيخ أحمد المذكور كما أخبرني بذلك من خَبَرُهُ عندي يُفِيد اليقين، بل تكاثرت الأخبار بذلك حتى كادت تَبْلغ حدَّ التواتر، ولمّا ذكر ابن المقري في روضه ما حاصله: إنّ من شَكَّ في تكفير طائفة ابن العربي فهو كافر.

قال شيخ الإسلام زكريًا في شرحه: هذا بحسب ما فهمه كبعضهم من ظاهر كلامهم، فإن ظاهره عند غيرهم الاتّحاد وغيره مما هو مُكَفِّر، والحقّ أنهم مسلمون أخيار، وكلامهم جارٍ على اصطلاحهم كسائر الصوفية، وهو

حقيقة عندهم في مُرادهم، وإن افتقر عند غيرهم ممّن لو اعتقد ظاهره كفر إلى التأويل؛ إذ اللفظ المُصْطَلح عليه حقيقة في معناه الاصطلاحي، مَجاز في غيره، فالمعتقد منهم لمعناه معتقد لمعنى صحيح، ولا يقدح فيه ظاهر كلامهم المذكور عند غير الصوفيّة لما قلناه؛ لأنه قد يصدر عن العارف بالله تعالى إذا استغرق في بحر التوحيد والعرفان بحيث تضمحلّ ذاته في ذاته، وصفاته في صفاته، ويغيب عن كلّ ما سواه عبارات تشعر بالحلول والاتّحاد، لقصور العبارة عن بيان الذي تَرَقّى إليه، وليست في شيء منها كما قاله العلّامة التفتازاني وغيره. اهـ.

وقد صرّح شيخ شيوخنا البرهان اللقاني رحمه الله بأن الحسين الحلاج قتل بما لم يتأمّله من أمر بقتله، يعني: ولو تأمّل كلامه وفَهِمَ مقصوده ما وجد له مساغًا لقتله، إذا تقرّر ذلك عَلِمْتَ أن العارف بالله تعالى الشيخ أحمد المذكور من المسلمين الأخيار المُرْشدين إلى الله تعالى؛ لأن ألفاظه منصرفة بحسب اصطلاحه إلى المعاني التي قصدها موافقةً للشريعة لا تحتاج إلى تأويل أصلاً؛ كما بيَّن هو تلك المعاني الصحيحة التي أرادها من ألفاظه في مواضع كثيرة من مكتوباته بالفارسية، وقد قُرِىء ذلك عندي بحضرة جماعة يعرفون الفارسية أمِنْتُ تواطئهم على الكذب، ولا مخالفة في شيءٍ من المعاني التي بيَّنَها لما تقرّر في شرعنا، ولا يَقْدح فيه ظاهر لفظه المذكور الذي يفهمه من لم يعرف اصطلاحه، على أن الظاهر القابل للتأويل لا يُكَفَّر صاحبه بمجرد ذلك الظاهر، بل بعد الوقوف على أنه يعتقد ذلك الظاهر.

أما إذا لم يعلم أنه يعتقد ذلك الظاهر ولفظه قابلٌ للتأويل، فإنا نُؤَوِّله ولا نَحْكُم بكفره، كما يفيده قول شيخ الإسلام، وإن افتقر عند غيرهم إلى تأويل، وكلام هذا الرجل بفرض أن لا اصطلاح له قابل للتأويل، كيف وقد وجد له اصطلاح؟ فعلى تقديره لا يحتاج إلى اصطلاح أصلاً، ولا يضرّه أن ألفاظه هذه لم توجد لمن تقدمه من القوم، لما علمت من أن الاصطلاح لا مَشَاحّة فيه، وإن خالف اصطلاح من سبقه، وبالجملة فالمُكَفِّرون له فَهِمُوا من ظاهر لفظه ولفظًا آخر مُفْتَرًى عليه أمورًا معلومًا نفيها من الدين بالضرورة بحيث لا يتوقف في التكفير بما فهموه فقيه ولا متفقّه، بل ولا جاهل بالكلّيّة؛

إذ فهمهم ذلك شاركهم فيه كل جاهل والمعاند يرغب في إخراج المسلمين من الإسلام بأدنى شُبْهَة، لا سيّما قومًا مشهورين بالصلاح يُرْشِدون العباد إلى الله سبحانه وتعالى.

وقد ذمّ السبكي هؤلاء الطائفة الذين يتساهلون في تكفير المسلمين؛ وذلك لأنه لما سُئِل عن تكفير أهل الأهواء والبِدَع، قال: اعلم أنّا نستعظم القول بالتكفير؛ لأنه يحتاج إلى أمرين عزيزين، **أحدهما**: تحرير المعتقد، وهو صعب من جهة الاطّلاع على ما في القلب، وتخليصه عمّا يشتبه وتحريره، ويكاد الشخص يَصْعُب عليه اعتقاد نفسه فضلاً عن اعتقاد غيره. **الثاني**: الحُكْم بأن ذلك كفرٌ وهو صعب من جهة صعوبة علم الكلام ومأخذه وتمييز الحقّ من غيره، وإنما يحصل ذلك لرجل جمع صحة الذهن ورياضة النفس واعتدال المزاج والتهذيب بعلوم النظر والامتلاء من العلوم الشرعيّة وعدم المَيل والهوى، وبعد تحصيل الأمرين يمكن القول بالتكفير أو عدمه، ثم بعد ذلك إمّا أن يكون التكفير بشخص خاص، فشرط مع ذلك اعتراف الشخص به، وهيهات أن يحصل.

وأما البيّنة في ذلك، فصَعْبٌ قبولها، لأنها تحتاج في الفهم إلى ما قدّمناه إلى أن قال: ولقد رأيت تصانيف جماعة يظنّ بهم أنهم من أهل العلم ويشتغلون بشيء من رواية الحديث، وربّما كان لهم نُسُك وعبادة وشهْرة بالعلم، تكلّموا بأشياء ورَوَوْا أشياء تُنْبِىءُ عن جهلهم العظيم وتساهلهم في نَقْل الكذب الصريح، وأقدموا على تكفير من لا يستحقّ التكفير، وما سبب ذلك إلّا ما هم عليه من فَرْط الجهل والتعصّب والنشأة على شيء لم يعرفوا سواه، وهو باطل، ولم يشتغلوا بشيءٍ من العلم حتى يفهموا، بل هم في غاية الغباوة. اهـ.

وقد غفل المُكَفِّرون عن اصطلاحه لعدم تتبّعهم لكلامه، أو اعتقادهم أن اصطلاح المتأخّر لا بدّ أن يكون موافقًا لاصطلاح المتقدم، ولم يميلوا إلى التأويل مع ما يردّه إما لغباوة أو حقد، على أنّ في كلام المُتَصدّي لتكفيره اعترافًا بعدم فهم مراده، حيث قال في آخر كلامه أو أراد شيئًا فقَصُرَت عنه عبارته، بل اعترافًا بعدم تكفيره؛ إذ هو من لازم اعترافه بعدم

فَهْم مراده فقد اعترف بأنه إذا أراد معنًى صحيحًا قَصُرَتْ عنه عبارته لا يكون كافرًا؛ فكيف وعبارته لا تَقْصُر عن إفادة المعنى الصحيح، يظهر ذلك للمُتأمِّل المُنْصف.

وفي كلام السعد وغيره ما يُفِيد أن العِبْرة بالمراد لا بالعبارة القاصرة عنه، حيث قال هو وغيره فيما نقله شيخ الإسلام: ولأنه قد يَصْدر عن العارف بالله تعالى إذا استغرق في بحر التوحيد عبارات تُشْعِر بالحلول والاتّحاد لقصور العبارة عن بيان حاله الذي ترقى إليه، فهذا صريح أو كالصريح بأن العبارة القاصرة التي تُشْعِر بالكفر، كالحلول والاتّحاد لا يكفر صاحبها، بل هناك أمور لا شُبْهَة للمُكَفِّر فيها أصلاً منها تكفيره بقوله: إن الكعبة لا يُراد بها خصوص الأبنية، ومنها ما ذكره بعض الطَّلَبة فيما يتعلق بالوجود وجعله قياسًا ونتيجة، فإنه لو أدرك لاستحيا أن يكتب ما كتبه ولكره أن يَطّلع عليه أحد ممن له نسبة إلى العلم، والعجب أن هذا المُكَفِّر ممن يُنْكِر على من يقول بكفر طائفة ابن العربي ويعترف باصطلاحهم ويحمل ألفاظهم على معانيها المُرادة لهم أو يؤوّل حتى كاد يتعبّد بألفاظ ابن العربي، حتى اغترّ بظاهر عبارته في الفصوص، وقال بإيمان فرعون مع أنه قيل: إنه مكذوب عليه لتصريحه في غير ذلك الكتاب ببقائه على كفره.

هذا الشيخ عبد الوهّاب من أهل الكشف حتى أنه ذكر اطّلاعه على الجنّة والنار والميزان والصراط وتلقّاه الناس منه بالقبول، وهو أدرى بكلام القوم من غيره، قال في كتاب اليواقيت والجواهر في اعتقاد الأكابر: قال الشيخ في الباب الرابع والستين وثلاثمائة: اعلم أنه لا يموت أحد من أهل التكليف إلّا مؤمنًا عن عيان وتحقّق لا مِرْيَة فيه ولا شكّ لكن من العلم بالله والإيمان به خاصّة، وما بقي إلا هل ينفعه ذلك أم لا؟ وفي القرآن العظيم: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: الآية 85]، قال: وقد حكى الله عن فرعون أنه قال: ﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يونس: الآية 90]، فلم ينفعه هذا الإيمان وأطال في أدلّة أنه لم ينفعه إيمانه.

قلت: قال الشعراني: فَكَذَب والله وافترى من نَسَب إلى الشيخ محيي الدين أنه يقول بقول إيمان فرعون، وهذا نصّه يُكَذِّب الناقل وجمهور العلماء قاطبةً على عدم قبول إيمانه وإيمان جميع مَنْ آمن في اليأس؛ لأن شرط الإيمان الاختيار، وصاحب إيمان اليأس كالمُلْجَأ إلى الإيمان، والإيمان لا ينفع صاحبه إلّا عند القدرة على خلافه حتى يكون المرء مختارًا، ولأن متعلق الإيمان هو الغيب. وأما من يُشاهد نزول الملائكة بعذابه، فهو خارج عن موضع الإيمان، والله أعلم. اهـ.

المقصود منه فهلّا أوّل لهذا أيضًا، بل هذا أولى بالتأويل؛ لأن ذاك طَعَنَ فيه كثيرٌ من أئِمّة عصره وغيرهم، وحكموا بتكفيره، ولم نسمع طعنًا في هذا الرجل عن أحدٍ يعتدُّ به، فإن قال: إن تقدُّم ابن العربي مقتضٍ لترجّحه، يقال له: التقدم لا يقتضي الترجيح، بل لو نظر لذلك ثبت في ابن العربي ما قيل فيه؛ إذ هو متأخّر بالنسبة لمن قبله من القوم، حتى جعل بعضهم هذا من جملة الردّ عليه، حيث قال: إن ما صدر عنه وعن طائفته ليس من اصطلاح القوم، وإن قال: إن باب السلوك والاستغراق قد سُدَّ بعد ابن العربي، فقد أراد سدّ باب لا وصول له إليه، ولا قدرة له عليه، وبعد التسليم أقلّ القليل أن يكون هذا الرجل أوْلى بالتأويل من فرعون، فإن بقاء فرعون على كفره يدلّ عليه ظواهر الكتاب والسنّة وصرفهما عن ظاهرهما بغير دليل لا يجوز، وجزم بكفره أيضًا جماهير العلماء حتى كادوا يُجْمِعون عليه إلّا من شذَّ، بل حَكَى بعضهم فيه الإجماع، ففي الزواجر لابن حجر الهيتمي: أخذ علماء الأُمّة مجتهدوها الذين عليهم المعوّل من الآية الأولى ـ أعني قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر: الآية 85]، إجماعهم على كفر فرعون، ورواه الترمذي في تفسيره في سورة يونس من طريقين، وقال في أحدهما: حديث حسن، وفي الآخر: حديث حسن غريب صحيح.

وروى ابن عَدِيّ والطبراني أنّه ﷺ قال: «خلق الله يحيىٰ بن زكريا في بطن أمّه مؤمنًا، وخلق فرعون في بطن أُمّه كافرًا». وأمّا ما حكاه عنه في سورة يونس بقوله عزّ من قائل: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا

ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: الآية 90] فهو ما ينفعه، إلى آخر عبارته الكافية الشافية القائل هو في أثنائها بعد نقله عبارة ابن العربي التي أخذ منها نسبة القول بصحّة إيمان فرعون لابن العربي، فهل هذا الكلام مُقرّر أو مردود؟ فما وجه ردّه قلت: قال ابن حجر: ليس هذا الكلام مُقرّرًا وإن كنّا نعتقد جلالة قائله، فإن العصمة ليست إلّا للأنبياء إلى أن قال على أنه نُقِل عن بعض كتب ذلك الإمام أنه صَرَّح فيها بأن فرعون مع هامان وقارون في النار، وإذا اختَلف كلام إمام فيؤخذ منه ما يوافق الأدلّة الظاهرة ويُعْرِض عمّا يُخالفها إلى ما طاب له اشتباه مما فيه ردٌّ لكثير من الجُهّلاء، فجعله إجماعًا ولم يُعَوّل على مَن خالف.

وأما تأويل كلام هذا الرجل، فلم يمنع منه مانع، بل صرّح العلماء بأن كثيرًا من اللفظ المُوهِم لا يُلْتفت إلى إيهامه، حيث أمكن حمله إلى محمل صحيح، وكأنه ظنّ أن إدخال الكافر في الإيمان أسهل من إدخال المسلم في الكفر، وهو ظنّ فاسد؛ لأنّا نستصحب الأصل في كلّ منهما حتى نتحقّق ما يخرجه عن ذلك الأصل، فالأصل في المسلم بقاؤه على إسلامه حتى نتحقق ما يخرجه عنه، والأصل في الكافر بقاؤه على كفره حتى نتحقق ما يخرجه عنه، فظهر أن التأويل للمسلم ليبقى على إسلامه أولى من التأويل للكافر، بل لا يجوز الحكم بإسلام الكافر بغير دليل؛ إذ الأصل بقاؤه على كفره، ولا يجوز الإقدام على تكفير المسلم حتى يتحقّق ما يعتقده من المُكفّرات، كما يدلّ عليه كلام السّبكي رحمه الله.

وقد بلغني أن شأن هؤلاء القوم - يعني المُكفّرين - أنهم ينظرون إلى المسائل التي يكون بعض العلماء مخالفًا فيها لما أطبق عليه الجمهور، ويقيم أدلّة لنفسه يستدلّ بها على ما خالف فيه، فيأخذون قول ذلك المخالف ويضعونه في رسالة ويردّون عليها ما أقامه هو من الأدلّة، وينسبونها إلى أنفسهم ويرسلونها إلى البلدان، حتى أشاعوا تلك الأقوال المخالفة لما عليه جمهور العلماء؛ فمن ذلك القول بإيمان فرعون، ومن ذلك اختيارهم أن وأنهنّ الغرانيق العُلى من قول النبيّ ﷺ إلى غير ذلك مما اشتملت عليه الرسائل التي يبعثون بها إلى البلدان، فيأخذها ضعيف العقل قليل العلم فيغترّ

بها وتصير هي معتقده، فإن قصدوا بذلك صرف العامّة عن اعتقاد ما عليه الجمهور إلى اعتقاد ما شذّ به واحد أو اثنان مثلاً، فهذا من الإفساد لا من الاصطلاح والإرشاد؛ إذ الذي عليه جمهور العلماء هو الحقيق بالاعتماد في الاعتقاد، وإنْ قصدوا بذلك إظهار دعوى الاجتهاد، وأنه صارت فيهم قوة الترجيح والردّ على الأئمة، فهذا لا يثبت دعواهم؛ إذ لا تميُّز لهم بذلك، إذ كل من له أدنى اشتغال بالعلم إذا اطلع على هذا القول وأدلّته أمكنه أن يقول: مثل ما يقولون بأن يقول: والذي أختاره في هذه المسألة كذا ويسرد أدلّة صاحب القول كما يسردونها، وإن لم يفهم المسألة ولا شيئًا من أدلّتها على أنه لا يتوهّم فيهم أحد تلك الأهلية، بل أهل وطنهم حتى الآخذين عنهم لا يثبتون لهم أهليّة التعليم فضلاً عن مرتبة الاجتهاد، فالله أعلم بمقاصدهم.

ثم انتقلوا من ذلك إلى تكفير المسلمين، وأما من أفتى بأن من أوّل كلام ذلك الرجل فهو كافر، فهو جاهل ـ أي جاهل معتوه ـ وقد أخبرني بذلك من له به خلطة تامّة من أهل العلم، فإني لا أعرفه وأُخبِرْتُ أنه ليس فيه أهليّة ليقرأ مقدمة أبي اللّيث فضلاً عن غيرها، وإنما يجلس للكذب على العوامّ يقرئهم مقدمة أبي الليث أو غيرها من الكتب الوعظيّات، ووافقه آخر أخبرني من يعرفه أنه قرأ أمثلة التصريف على بعض موالي الروم، ولا علاقة له بفقه ولا حديث ولا غيرهما من العلوم الدينيّة وأوّلا عنه وجهل الأول وجهل الثاني لحكمنا بكفرهما، ولكن لمّا كان لهما نوع عذر باعتبار أن العوامّ لا يكلّفون إلّا بمعرفة المسائل الظاهرة دون المسائل الخَفِيَّة، وهذه المسألة من المسائل التي تخفى على مثلهما من العوام، أعرضنا عن الحكم بذلك ولكن مثل هذين الجاهلين ينبغي تأديبهما وزَجْرهما عن الخوض فيما لا وصول لأذهانهما إليه، والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب، وحسبنا الله ونِعْم الوكيل، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، قاله الفقير أحمد البشبيشي المصري الأزهري الشافعي رحم الله من تابع الحقّ وأظهر الخفيّ من الجليّ.

* * *

صورة ما كتبه العلّامة العالم بالله تعالى الشيخ عبد الله العباسي الشافعي المكي رحمه الله تعالى:

بسم الله الرحمٰن الرحيم، حامدًا ومصلّيًا وبعد، فقد وقفت على ما كتبه العلّامة الأوحد الهُمام الأمْجَد مولانا وسيدنا الشيخ أحمد بلّغه الله تعالى كلّ مقام أحمد، فما وجدت لكتابة غيره معنى؛ إذ المُعَوّل عليه كلامه، فالله أسأل وبنبيّه وآله وصحبه أتوسّل أن يُدِيم النفع به بجاه سيد الأوّلين والآخرين، سيدنا محمد ﷺ، قاله الفقير إلى الله تعالى عبد الله العباسي الشافعي.

* * *

صورة ما كتبه سنجقدار العلّامة القاسم المكي الحنفي عامله الله تعالى بلطفه الجلي والخفي:

بسم الله الرحمٰن الرحيم، وبه العون الحمد لله حمدًا يليق بجلاله والصلاة والسلام على سيّدنا محمد وآله وصحبه صلاة تليق بكماله.

أما بعد؛ فقد أحطتُ بهذا السؤال والرسالة والأجوبة نظرًا وتأمّلتها وأمعنتها فكرًا، فرأيت أن النقص في السؤال بالتبديل الذي يدلّ على أن فاعله صاحب نقص وحظّ نفس وافتراء وتسويل. أما الرسالة، فقد أظهرت لقائلها الفضل والجلالة، كَثّر الله تعالى أمثاله وجعل للمتّقين ظلاله. أما الأجوبة، فكل جواب مبنيّ على فهم المُجِيب من الخطأ، والأخذ بالظاهر بلا رَيْب.

وأما الجواب المُلْحق بالسؤال لصاحب الرسالة فهو المبين لا مُحَالة، هو جواب مولانا وشيخنا وبركتنا الشيخ أحمد، فهو من كلّ جواب أحمد وما لنا إلا اتّباع أحمد، فعليه الاعتماد في المبدأ والمعاد، كيف لا! وهو الجامع بين المعقول والمنقول والحاوي لجميع الفنون من الفروع والأصول، فسّح الله في مدّته، وجعلنا ممن يقوم بحُجّته، وفي الرسالة والجواب ما فيه كفاية لأولي الألباب من أدلّة السُّنّة والكتاب، ومقامنا التسليم لأهل الباطن، ففيه السلامة للدين في الظاهر والباطن والتخلّق بأخلاق من سلف ممن مضى وزَلَف، قال النبيّ ﷺ: **«ذَرُوا العارفين المحدثين من أُمّتي لا تنزلوهم الجنّة ولا النار حتى**

يكون الله تعالى الذي يقضي فيهم يوم القيامة»[1]، قال المناوي رحمه الله تعالى: جمع مُحَدَّث اسم مفعول بالفتح، أي مُلْهم، وهو من أُلْقِيَ في نفسه شيء على وجه الإلهام والمكاشفة من الملإ الأعلى، فظهر أن المراد بهم المجاذيب الذين يبدو منهم ما يخالف ظاهره الشرع، فلا يتعرّض له بشيء، انتهى. نقله العلامة السيوطي في الجامع الصغير عن الخطيب وصحّحه.

فإذا كان هذا في المحدثين الذين هم الملهمون المجاذيب، فما بالك بشيخ أكبر قد ظهر إرشاده في الأصغر والأكبر وسرَى سرّه في القلوب ونوّر، كيف لا يُلْتمس لكلامه ما يليق بمقامه، فلكل مقام مقال، ولكل وليّ حال ومجال، جعلنا الله تعالى من المعتقدين، لا من المنتقدين، ومن المصلحين لا من المفسدين المتعنّتين، ومن المتبعين لا من المبتدعين، وأفاض علينا من بركات أوليائه أهل حق اليقين ربّنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا، ربّنا إنك رؤوف رحيم، ربنا أفرغ علينا صبرًا وتوفّنا مسلمين، قاله الفقير إلى الله تعالى قاسم بن سنجقدار المَكّيّ الحنفي حامدًا ومصلّيًا. اهـ.

***

صورة ما كتبه شيخ الحرم المكيّ السيد محمد أفندي الحسيني رحمه الله تعالى وطيَّب ثراه وجعل الجنّة منقلبه ومثواه:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أنْعَم وتفضَّل على مَنْ يشاء مِن عباده بالكَمال ووَفّقه لبَسْط السلوك في طريقة الحقيقة بالإجلال، أحمد الله سبحانه وتعالى على ما وهبنا من الإنعام والإفضال وصلّى الله على نبيّه الكريم السيد الحكيم سيدنا محمد صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه أهل المجد والكمال صلاة دائمة بالغُدُوّ والآصال وسلّم تسليمًا.

(1) رواه الجرجاني في الكامل في ضعفاء الرجال، أسامي شتّى ممّن ابتداء أسمائهم طاء، [4/ 121]؛ والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، باب الخاء حديث رقم (4395) [8/ 292].

أما بعد؛ فقد وقفت على السؤال الذي صَوَّره صالح الأورنك آبادي ومحمد عارف وعبد الله الكوكني من توابع صالح المذكور، فوجدته قد ذكروا فيه أقوالاً وزعموا أنهم استخرجوها من مكتوبات الشيخ الأجلّ الهُمَام الأكْمَل في الطريقة النقشبنديّة، بل الإمام مَنبع العلوم والمعارف مَنْشأ الأسرار واللطائف العارف بالله تعالى الشيخ أحمد الفاروقي الحنفي النقشبندي رحمه الله تعالى وأعلى درجاته.

وحيث كانت مكتوبات الشيخ رحمه الله تعالى بالفارسية عرّبوها إلى الألفاظ العربية بمقدار معرفتهم ومقتضى مُرَادهم نعوذ بالله من اتّباع النفس والهوى، وأرسلوها إلى فلان أحد مُجاوري المدينة المُنَوَّرة.

ثم بعد وصول ذلك السؤال إليه عَلّق رسالة بتكفير الشيخ أحمد المذكور بسبب الأقوال المكتوبة في السؤال الملائمة لخاطر المُرْسِل إليه وتصدّى لإثبات كُفْره بها، وهَيْهات أن يُثْبِت، وطلب من قاضي المدينة المُنَوَّرة ومُفْتيها وعلمائها أن يكتبوا على ذلك السؤال على وِفْق مراده، فامتنعوا عن ذلك ورَدُّوا عليه كلامًا وأجوبة تَلِيق بالعلماء العاملين بعلومهم.

ثم بعد ذلك أتى إلى مكّة المُشَرّفة فَسأل الكتابة على السؤال المذكور من قاضيها ومُفْتيها وعلمائها أيضًا، فما أحد وافقه على ذلك وأجابوه بقولهم: هذا الأمر الذي ارتكبته عظيم، فما يوافقك في تكفير مسلم إلّا كل هالك، ولا وافقه بالكتابة من العلماء على ذلك إلّا آحاد من الناس ممّن لا معرفة له بالطريقة، وبعضهم وافقه لملائمة هواه، وبعضهم لا عِلْمَ له رأسًا ولا حقيقة، فحصل ما حصل من القيال والقال بسبب فعل هذا الضالّ، وهو فعل ذلك لتبع هوى من أرسل إليه السؤال أو ما عَلِمُوا قوله ﷺ: **«لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»**(1) فما بَالُك في حقوق العباد؟ لا سِيّما فيمن أراد تكفير وليّ وهو أعلم العباد!! فيا وَيْل من تَجَرأ ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝﴾

(1) رواه الترمذي في سننه، (29) باب ما جاء لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، حديث رقم (1707) [4/ 209]؛ والطبراني في المعجم الكبير، عن عمران، حديث رقم (381) [18/ 170]؛ ورواه غيرهما.

[الفَجر: الآية 14]، فبموجب ما افتروا على الشيخ أحمد النقشبندي ومكتوباته احتاج الأمر إلى تتبّع مكتوبات المرحوم الشيخ أحمد المذكور وتعريب ألفاظه الفارسية إلى العربية على وجه يتّضح الحق به على يد عالم له علم بالعربية والفارسية.

وحيث كان الأمر كذلك صرف الشيخ الأجلّ العالم الفاضل الشيخ محمد بيك هِمّته العَليّة وطلب جميع مكتوبات الشيخ أحمد وقابل الأقوال التي في ورقة السؤال مع مكتوبات المرحوم، فوجد بعضها غير موافق لها بسبب التحريف وترك بعض الألفاظ وزيادة أخرى التي ارتكبها هذا الظريف، فكتب الرسالة وبيّن فيها اصطلاحات السادات النقشبندية ومقاصد الشيخ أحمد رحمه الله تعالى، وأراد بذلك إظهار الحقّ، فإن اتّباع الحقّ أحقُّ، ولينحلّ الإشكال وليرتفع القيل والقال، فعَرّب الألفاظ الفارسية إلى العربية وأحسن واهتمّ وأتقن وارتفع من أهل الحقّ سوء الظنّ، بل رجع الكفر على من تجرّأ بتكفير المسلم، ونَدِم كثير ممن كتب على السؤال المذكور ولازم الندم رجاء أن يدخل تحت قوله ﷺ: **«التوبة الندم»**[1]، لِمَا ظهر لهم أن مبنى الأمر على الهوى والغرض والبهتان الذي فُهِمَ من الزيادة والنقصان والتجرُؤ الذي لا يليق بالمسلم فِعْله، بل ولا يقبله إنسان، قال ﷺ: **«من آذى مسلمًا فقد آذاني»**[2]، فكيف يكون حال من تجرأ على التحريف، وقوله عليه الصّلاة والسلام: **«اذكروا محاسن موتاكم وكُفُّوا عن مساويهم»**[3]، وقوله عليه الصلاة والسلام: **«من حُسْن إسلامِ المَرْء تركه ما لا يعنيه»**[4]، فظهر الحق وزُهِق الباطل إن الباطل كان زَهُوقًا، فينبغي لحكّام تلك الديار أن يُخْرِجوا منها مَنْ هو مثل هؤلاء المتجرّئين، بل يجب أن يُؤَدّبهم بحسب ما يقتضي أقوالهم وأفعالهم،

---

(1) رواه ابن أبي شيبة في مصنّفه، في تعظيم دم المؤمن، حديث رقم (1 ـ 27752) [5/ 435].

(2) رواه الطبراني في المعجم الأوسط من اسمه سعيد، حديث رقم (3607) [4/ 61].

(3) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الجنائز، حديث رقم (1421) [1/ 542]؛ وابن حبان في صحيحه، فصل في المحتضر، ذكر البيانِ بأن قوله ﷺ فدعوه. . . ، حديث رقم (3020) [7/ 290]؛ ورواه غيرهما.

(4) رواه ابن حبان في صحيحه، باب ما جاء في صفات المؤمنين، حديث رقم (229) [1/ 466]؛ والترمذي في سننه، (11 باب) حديث رقم (2317) [4/ 558]؛ ورواه غيرهما.

وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، قال ذلك وكتبه أفقر عباد الله الغني محمد بن حسن الحسيني شيخ الحرم المكيّ، عفى الله عنهما وعن المسلمين أجمعين.

* * *

صورة ما كتبه السيد علي بن السيد محمد المعروف بكلاه زاده الديار بكري المكي رحمه الله تعالى:

بسم الله الرحمٰن الرحيم وبه نستعين:

ربِّ ليس الهدى غير هداك، ولا آلاء إلّا آلائك، نحمدك اللّهمّ يا مفيض الأنوار ويا مزيِّن قلوب العارفين بالأسرار أفِضْ علينا أنوار رحمتك ويَسِّر لنا الوصول إلى كمال معرفتك، وهب لنا منك محبّتك وصلّ على محمد لسان حجّتك وعلى آله وأصحابه خير بَرِيَّتك وعلى أوليائك المُرْتَاضين المتمسّكين بشريعة خير خليقتك بجلال عِزَّتك وكمال رأفتك.

أمّا بعد؛ فإني لَمّا وقفتُ على المكتوبات الفارسيّة التي كتبها شمس فلك الإرشاد وبَدْر أوج الطريقة والسَّداد، ومحور دائرة الفضائل والكمالات والرشاد القطب الرَّبّاني والغوث الصَّمَداني المرحوم المُقَدَّس المبرور الأوْحَدي العارف بالله تعالى الشيخ أحمد السَّرْهندي الفاروقي النقشبندي قَدَّس الله سرّه العزيز ومعرِّبها الذي عَرَّبه العمدة العلّامة والزبدة الفَهّامة الفاضل الأكْمَل والمُحقِّق الأجلّ العارف باصطلاحات السادات الصوفية والعالم بقواعدها المُرْضية محمد بيك وعَيْن الله ترعى لسانًا عَرَّبه، فأحسن وأجاد، وبنانًا نقله إلى البياض من السواد وأتْقَن وأمْعَن وأفاد وشرح وفصَّل وبيَّن ما هو المراد جعل الله تعالى عمله مَبْرورًا وسَعْيَه مشكورًا وجَزَاه في الدَّارَيْن جزاءً موفورًا.

فبعد ما أوضح المعرب الفاضل وبيَّن ما هو المُراد من مكتوبات الشيخ الكامل وصرَّح بأنه لا مخالفة في مكتوبات الشيخ للشرع الشريف قطعًا، لا أصلاً ولا فرعًا لقيتها منطوية على الحقائق من الفوائد المَرْموزة مُشْتملة على الدقائق من الفرائد المَكْنوزة متْزِنَة بميزان الشريعة الغَرّاء مُمْتلِئة بلوائح تَعْجَز عن إدراكها القوى؛ لأنها مُعَبَّر عنها بلسان السادات الصوفية ومُحَرَّرة على

اصطلاحات مشارب تلك الطائفة العَليّة لا لَغْو فيها ولا تأثيم إلّا قيلاً صوابًا ومقالاً كخالص التّبْر مُذابًا، فيا له من كتاب فاخر تُعْقَد عليها الخناصر.

وقد تصدّى بعض مُبْغِضي الطريقة النقشبندية والشيخ المذكور لجَمْع التّرهات وعَرَّب بعض مواضع من المكتوبات وغيّر وبَدّل وحرّف بالنقص والزيادات، فيا وَيْل من غَيّر وبَدّل وحَرّف وغَوَى في بَيْداء التعدّي وتَعَسّف وتكَلّف، ويا خُسْران من تجرّأ عليه بإطالة لسان الاعتراض الناشىء عن التعصّب والعِناد، ويا طغيان من تصَدّى عليه بالتكفير المُنْبَعِث عن دناءة النفس وادّعاء التعيُّن والانفراد، ولَئِن سُلّم عدم التغيير والتحريف، فبمجرّد عدم وصول أحدٍ إلى غَوْر مكتوب من المكتوبات التي كُتِبَت على اصطلاحات خفيّة لقوم موقوفة على السماع لا يَلْزَم أن يكون في نفس تلك المكتوبات شيء من الخطأ والزّلَل والاعْوِجاج، فهلّا يمكن أن يكون الخطأ في الناظر إليها من قُصُور الفِهم وقِلّة التأمّل وسائر الموانع في المزاج، لأن العقول متفاوتة بمراتب إلى العاشر، وكذا القوى والحواس والمشاعر، فكثيرًا ما يقع للإنسان أنه مرّة يعلم ويصل إلى غَوْر شيء من الجليّ والخَفِيّ، ومرة يصل إلى الخفي ويتوقّف في الأمر الجليّ وفهمه لا يفي، فهكذا عِلْم المخلوق العاجز، فمرّة يُفْتَح عليه باب الوصول، ومرّة يَظْهر له حاجز.

وأمّا العِلْم بكل شيء والإحاطة بحقيقته في كل زمان وفي كل حال، فذا في حيِّز الامتناع؛ لأنه من شأن عالم الغَيْب والشهادة الكبير المُتَعَال، فالمنصف المتأمّل العالِم إذا لم يصل إلى حقيقة معنى وغَوْره من المعاني المقصودة في العبارات الخفيّة وتعسّر عليه العثور، فهو لا يخطىء قائلها، بل يَحْمل على نفسه الخطأ والقصور، فيستمدّ ممّن عنده مفاتيح الغَيْب وبيده مقاليد الأمور، ولا يتكلّف في حَمْل الكلام على أمرٍ بعيد من مُخالفة الشّرع وإيجاب التكفير الشديد، والتّكفير أمرٌ عظيم لا يتجرّأ عليه إلّا مَنْ هو غافل أو جاهل لئيم، قال في البحر: والذي تحرّر أنه لا يُفْتِي بتكفير مسلم أمْكَن حمل كلامه على مَحْمل حسن، أو كان في كُفْره اختلاف، ولو رواية ضعيفة، انتهى.

وإذا تقرّر هكذا، فكيف من تجرّأ أو أطال لسان الاعتراض على الأولياء المتجرّدين عن جلابيب أبدانهم المُنْخَرطين في سِلْك المُجَرّدات الواصلين إلى

بحر الحقيقة الخائضين في لُجّة بحر الوصول إلى توحيد الذات العالمين الثابتين على الصّراط المستقيم العالي حالهم وشأنهم ولسانهم عن مخالفة الشرع القويم، وقد وقف على تلك المكتوبات ومُعَرّبها علماء مكّة المُشرّفة زادها الله تعظيمًا وتشريفًا وتلقّوْها بِحُسْن القَبول في الملفوظ والمدلول، بَيَّض الله وجوه أعمالهم وساعدهم بألطافه الخَفِيَّة في حالهم ومآلهم، فاقتفيت صدورنا الفضلاء أعزّهم الله بحُرْمَة الأنبياء بالإقبال والإمضاء، عِلْمًا مني بأنّي لست من عِداد هؤلاء الكُرَماء، ولكن لا بأس بأن يُقتفى بهم مَيْلاً ومحبّة وطفيليًا لأعزّتنا الأجلاء، فعلى الحُكّام ووُلاة الأمور أن يَسْعَوْا في تأديب أمثال هؤلاء المُتَجَرّئين بالسَّعْي المَوْفور، وأن لا يخلوهم في ضلالهم القديم، بل ينبغي أن يهتمّوا في التأديب والزَّجْر بالاهتمام العظيم حتى ينقطع القيل والقال بين الآحاد ويَنْسَدّ باب التعصّب والتجرُّؤ وينعدم الفساد، والله سبحانه يقول الحقّ وهو يهدي السبيل، وهو حَسْبنا ونِعْم الوكيل، قاله تراب أقدام الفقهاء وخادم محافل العلماء العبد الفقير إلى الله تعالى الصّمد السيّد علي بن محمد المدعوّ كلاه زاده جعلهما الله من الفائزين بالحُسْنى وزيادة، حامِدًا ومُصَلّيًا ومُحَسْبِلاً ومُحَوْقِلاً ومُهَلِّلاً والحمد لله ربّ العالمين.

ومنها: ما كتبه العلاّمة الشيخ مُرْشد الدين بن أحمد المرشدي تغمَّده الله بغفرانه ورحمه الله سبحانه مع أسلافه:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى،

وبعد؛ فيقول الفقير إلى ربّه الغنيّ مرشد الدين بن أحمد المرشدي الحنفي العمري: إني وقفتُ على الرسالة المُعَرّبة عن الفارسية لشيخ الطريقة والحقيقة العلاّمة المرحوم المُقَدَّس المَبْرور الشيخ أحمد الفاروقي النقشبندي والمُعَرِّب لها العلاّمة والعُمْدة الفَهّامة الشيخ محمد بك بَيّن كلام صاحب الرسالة، ورَدّ على من حرّفه، فظهر على أحْسن الوجوه، فجزاه الله سبحانه خير الجزاء يوم تَبْيَضّ وجوه وتَسْوَدّ وجوه، وقد وقف على الرسالة المُعَرّبة علماء مكّة المُشرّفة، فكتبوا عليها بعد أن تأمّلوا كلامه وفهموه وتبيَّن لهم بطلان قول من تكلّم على

صاحب المكتوبات وتجرّئه، فنقول: اللّهمّ أرِنَا الحق حقًا وارزقنا اتّباعه، وأرِنَا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، فوجب على كل من كان بيده القلم والسيف أن يَنْصر الإسلام والمسلمين ويؤيّد أولياء الله تعالى فهم في الحقيقة هم العلماء العاملون وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم تسليمًا.

ومنها: ما كتبه شيخ الإسلام مُفتي الأنام بمدينة الرسول عليه السلام مَوْلانا السيد أسعد، أسعد الله تعالى حاله في الدارَين، صاحب الفتاوى الأسعديّة، كتبه أول مرّة في أوائل رجب سنة ثلاث وتسعين وألف:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ربِّ زِدْني عِلْمًا وفِهْمًا، وكِدْ من امتلأ قلبه حسدًا وظلمًا، الحمد لله الذي فتح على قلوب أوليائه أنوار اليقين، ومنح من اختصّ من أصفيائه بفُيُوضات يعجز عن فَهْم معانيها كثيرٌ من المتكلّمين والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمد خاتم الأنبياء والمُرْسَلين، وعلى آله وأصحابه وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدّين.

وبعد؛ فقد شاع في الأقطار الحجازيّة ذِكْر سؤال وَرَدَ من الهند فيه كلماتٌ غامضة خفيّة، ثم بعد مدة عُرِضَ عليّ لأكتب عليه بالردّ على قائله، وهو رجل اسمه أحمد السّرهندي، فإذا فيه كلمات بعيدة المعنى ركيكة العبارة والمبنى، وأُخبرت أنه مُعَرّب من الفارسية، ولا يُؤمَن أن تكون الترجمة غير مُطابقة للواقع، خصوصًا مع تظاهر حامله بعداوة تامّة بلا مدافع، فلم ينشرح صدري للكتابة على ما لم يقع عندي فيه تحقيق، ولعلمي بأن للمشائخ اصطلاحات اتّفقوا عليها لا تَظْهر أسرارها إلّا بإعلامهم أو بنور التوفيق.

قال العلّامة ابن عباد في شرح الحِكَم العطائيّة: إن كلام الأولياء مَنُوط على أسرار مَصُونة وجواهر حِكَم مكنونة لا يكشفها إلّا هم، ولا يتبيّن حقائقها إلّا بالتلقي عنهم، فلذلك ردَدْته بغير كتابة عليه، ثم جعل يعرضه على كل غثٍّ وسمين، فيكتبون عليه ما لا يفهمون ويتكلّمون بما لا يعلمون فيما لا يعلمون، ولكن سيجزون به ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطفّفين: الآية 6]، ثم جاءني بعض الإخوان وأخبرني بحقيقة المكتوبات وأحسبه صادقًا لصلاح

ظاهره، وأفادني أن فيه زيادة ونقصانًا، أُخْرِجت المكتوبات عن موضعها، وإن لم يكن في جميعها، بل في مجموعها، ورأيت تأويلات حضرة الشيخ محمد فرخ شاه عند ذكر الملاحة من المكتوب الرابع والتسعين من الجلد الثالث من المكتوبات.

قال: وقد استشكل تلك بعض المُعاندين بأنه إذا كان حصول الخلّة والولاية المُحَمّدية له ﷺ موقوفًا على توسّط واحد، فردٌ بعد ألف سنة يلزم منه أنه ﷺ لم يكن حبيبًا ولا خليلاً، وهو خلاف الحديث، فإنه ﷺ سَمّى نفسه حبيبًا وخليلاً، وجوابه ما قال الشعراني في العهود والمواثيق: إذا بلغك عن صوفي ما يخالف الشرع فاحمله على سبعين مَحْملاً، فإذا لم تقنع بذلك نفسك فارجع إليها باللّوْم وقُلْ لها: يحتمل كلام أخيك سبعين مَحْملاً ولا تحملينه على محمل واحد.

وقد أجاب رحمه الله بنفسه عن هذا الإشكال وغيره في التنبيه في آخر المكتوب وافتتاحه مسوق لبيان وجه اتّباع الحبيب لمِلّة إبراهيم الخليل عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: الآية 123]، ومقصوده أن الولاية الإبراهيمية بمنزلة السُلّم للعروج إلى الحقيقة المحمدية، فأمر ﷺ باتّباعه ليحصل له بواسطة الاتّباع مناسبة بالولاية الإبراهيميّة، وتكون مِعْراجًا للعروج إلى الحقيقة المحمدية التي هي المقام الأعْلى، فوصل ﷺ من ذلك الطريق إلى مقامه الأعلى، واحتظّ من تلك الولاية في ممرّه بقدر الإجمال، كما يدلّ عليه قوله: فبالضرورة كان الخروج من هنالك والدخول في محيط الدائرة دلالة صريحة على أنه ﷺ في عين المركز الأقرب إلى ذات الحقّ تعالى، وغاية الأمر أن ظهور تفصيل كمالات المحيط مشروط بالشروط المذكورة.

وقوله قُدّس سرّه: ما لم يتيسّر الوصول لجميع المقامات الإبراهيميّة لا يتيسّر الوصول للحقيقة المحمديّة مؤوّل بأنه ليس المراد بلفظ الحقيقة عين المركز المُعَبّر عنه بالملاحة، بل المراد المركز بجميع كيفيّاته وخصوصيّاته، ويحتمل أن يكون ظهور بعض دقائق ذلك المقام مَنُوطًا بحصول جميع مراتب المحيط، ولا محذور في ذلك؛ لأن أصل ذلك المقام الذي لا أقرب

منه في مراتب القُرْب الإلهيّ ثابت له ﷺ، حيث اتّضح أن مقام المحبوبية والمَلاحة حاصل له ﷺ، وكذا هو محيط بطريق الإجمال بالمحيط الذي هو الصّباحة والخِلّة، فتحقّق أنه ﷺ متحقّق بكلّ من مقامي الخلّة والصباحة والمحبوبية والملاحة، لا كما فَهِمَهُ المُعاندون، فقالوا: إنه ﷺ لم يكن له مقام المحبوبية والخلّة إلّا بعد ألف سنة. ألَا يرى ما في آخر المكتوب المُنْبِيء لسرّ الصلاة المنطوقة حيث كتب فيه: إن ولاية الخلّة تمّت له ﷺ ولم يكتب أنه حصل له، انتهى من كشف الغطاء عن أذهان الأغبياء لحفيده فرخشاه، وكذلك رأيت تأويل مقام الصديقية وكونها عرض رؤيا لا غير، وباب التأويل لكلام الأولياء مفتوح ولا خير في الحكم بكفر مسلم، فكيف بوليّ من أولياء الله تعالى؟ أسأل الله العصمة والهداية إلى سَوَاء الطريق، وقد صدر عن الأولياء من الكلام المشكل ما هو أعظم من ذلك، فتلقّاه العلماء رضي الله عنهم بالقبول خلفًا عن سلف من غير التفات إلى إشكال ظاهره، مع عِلْمهم بحقيقته وما يقتضيه نظرًا إلى كمال أحوالهم، لا إلى ظاهر أقوالهم، والله تعالى أعلم.

كتبه الفقير إلى الله تعالى السيد أسعد الحنفي المدني المفتي السلطاني غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين، آمين. وحسبنا الله ونِعْم الوكيل ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين والحمد لله ربّ العالمين.

ومنها: ما كتبه مولانا المُفْتي المذكور ثانيًا في صفر سنة ١٠٩٤ أربع وتسعين وألف:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي حَمَى حوزة أوليائه بصيانة علماء الدين وصمّى وأصْمَى من سعى في إطفار نور الولاية بقهره المَتِين، وأعزّ من أعزّ دينه الشامخ العِماد الرّاسخ الأصول السامي الأوتاد، والصّلاة والسّلام على سيدنا محمد الذي رفع مقامه وشفعه في الخلائق يوم القيامة، وعلى آله وأصحابه وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين خصوصًا أوليائه العاملين.

أما بعد؛ فإنه لما رُفِعَ إليَّ السؤال الذي ورد من الهند لكتابتي عليه في أوائل رجب المُرَجَّب سنة 1093 ثلاث وتسعين وألف، فامْتَنَعْتُ عن ذلك كما ذكرته قبل ذلك، ثم عُرِض عليَّ ثانيًا في أواخر شهر صفر الخير سنة 1094 أربع وتسعين وألف مرّات متعدّدة، وجعل حامله يلتمس منّي الكتابة عليه بكل حيلة ويتوسّل لذلك بكل سبب ووسيلة، فامتنعت غاية الامتناع لأمرٍ أَلْهَمني إيّاه ربّي بلا تكلّف ولا اصطناع، ثم ورد المدينة المُنَوّرة رجل هندي من أتباع الشيخ أحمد السّرهندي اسمه الشيخ جلال الدين البطحي وعَرَّب بعض كلمات ما في السؤال للشيخ أحمد السّرهندي، وأفادني هو وغيره ممن أثق بعِلْمهم وديانتهم أن السؤال المذكور على خلاف ما في نفس الأمر، ووافق ظنّي الواقع والحمد لله، وعَرَضها عليّ فتأمّلتها ورأيتها حَرِيَّة بالقبول، بل جديرة بأن تكون تاجًا على رأس المكاتبات والنُّقول، فكتبت عليها بالتحسين، وجديرٌ بأن تُحَسَّن، بل وأنّى لمثلي أن يقول للحسن أنت الحسن، ولكن لمّا كانت نَصْرة الأولياء من أعظم القُرُبات وأقوى المَثُوبات أحببت أن أتشبّه بأهل الصّالحات لعلّ الفَيْض الإلـهيّ يشملني ببركتهم، وإنه وليّ المَكْرُمات، فكتبت ما هو أعلاه.

ثم في سلخ جُمادى الثانية سنة أربع وتسعين وألف أرسل إلينا من مكّة المُكَرّمة تعريب الشيخ محمد بيك وتأييد شيخ الإسلام مرجع الخاص والعام، الأستاذ الكامل العالم الفاضل الناصر لدين الله تعالى والناصر لعباد الله الشيخ شهاب الدين أحمد البشبيشي المصري، فقام شكرًا لله تعالى سَعْيه للانتصار على ساق رَدْعًا بذلك أهل العِناد والشّقاق، والشيخ الكامل النحرير الفاضل بقيّة أهل الخير والصّلاح الراقي على مراقي العلم والفلاح الشيخ عبد الله العباسي الشافعي، ومولانا شيخ الإسلام ببلد الله الحرام العالم المُحقّق والفاضل المُدَقّق إكليل رؤوس الأفاضل وواسطة عقد المحرّرين ذوي الفضائل عبد الله أفندي عتاقي زاده غفر الله ذنبه ومن الحسنى زاده، والشيخ الصالح الجهبذ الفالح المفيد الناصح أخي في الله ومحبّي لله الشيخ حسن بن محمد مراد التونسي، والشيخ العالم ذو الفضائل والمكارم المتلقّي للعلوم عن الأساتذة الأكارم الشيخ قاسم سنجقدار وغيرهم من فحول علماء بلد الله الحرام، فلا يُحْتاج إلى ذكرهم بعد ذِكْر شيخ أمّ القرى، وقد قيل: كل الصيد في جوف الفرا، فلما رأيت ذلك

لاح لي سرّ قوله ﷺ الذي رواه في معالم التنزيل، يقول الله عزّ وجلّ: «**من أهانَ لي وَلِيًا فقد بارزني بالمحاربة، وإني لأغضب لأوليائي كما يغضب الليث الحرود**»[1] الحديث، ودعاني مُقَلِّب القلوب أن أقتفي آثارهم، وإني أقول وفي قولهم الدليل الأعظم وفيهم البحر المتلطِّم، وعند مقالتهم تُلْقَى عصى التسيار وما وراء عبادان دار، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، كتبه الفقير إلى ربّه القدير أسعد الحنفي ثم المدني حامدًا مصلّيًا مُحَوْقِلاً مُهَلِّلاً، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربّ العالمين.

ثم انتهى ما تعلّق به المرام من كلمات هؤلاء الأعلام رؤساء الأنام مصابيح الظلام، وقد تركت بعضًا منها خوف الإطالة والإملال واكتفاء بهذا القدر عن ذِكْر الكلّ بالكمال، فإن في ذلك كفاية لمن أدركته العناية، ولنذكر هنا كلمات مَنْ سواهم مِنَ العلماء العِظَام والفُضلاء الفِخام، حِرْصًا على إرشاد مَنِ استرشد وتحاميًا عن تخييب ظَنّ من استرفد.

قال سحبان الهند مولانا المرحوم السيد غلام علي المعروف بآزاد البلكرامي في ترجمته قُدِّس سرّه: هو من أعيان سرهند ومن مفاخر أهل الهند المُجَدِّد للألف الثاني والبرهان الساطع على أشرفية النوع الإنساني سحاب هاطل، روى العرب والعجم أمطاره نيّر أعظم بلغ المشارق والمغارب أنواره جامع العلوم الظاهرة والباطنة، خازن الكنوز البارزة الكامنة، وهو في صغر سنّه حفظ القرآن وأفحم بتحبير صوته سواجع البستان، وفي الابتداء تتلمذ على أبيه الأوحد مولانا الشيخ عبد الأحد، واستفاد منه جمًّا من العلوم، ثم ارتحل إلى سيالكوت وقرأ على مولانا كمال الدين الكشميري بعض كتب المعقولات في نهاية التحقيق والتدقيق، وأخذ الحديث عن مولانا يعقوب الكشميري وتناول الحديث المسلسل بالأوّليّة بواسطة واحدة عن الشيخ عبد الرحمٰن الذي كان من كُبَراء المحدثين بالهند وتعاطى عنه إجازة كتب التفسير والصحاح الست وسائر مقروءاته، وفي عمر سبعة عشر سنة فرغ من تحصيل العلوم الدَّرْسية، واشتغل

---

(1) أورده السيوطي في الدّرّ المنثور، سورة الشورى، الآيتان 28، 29 [7/ 353] وعزاه إلى ابن أبي الدنيا في كتاب الأولياء والحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية وابن عساكر في تاريخه عن أنس.

بالتدريس والتصنيف فصنّف في تلك الأيام رسالة لطيفة فارسية وعربية، ثم ارتحل من سرهند إلى دهلي، وأخذ الطريقة النقشبنديّة عن عبد الباقي، وللخواجه المذكور في حقّ المُجَدِّد عنايات عظيمة وكلمات كريمة، ثم جلس المُجَدِّد على مسند الإرشاد والتلقين وملأ من فَيْضه السمٰوات والأرضين، ونشأ في حجر تربيته الخلفاء الأجلّاء كل واحد منهم آية ومركز لدائرة الولاية وصلت سلسلته من الهند إلى ما وراء النهر والروم والشام والغرب، وله مكتوبات في ثلاث مجلّدات بالفارسية هي حُجَجٌ قواطع على تبحّره وبراهين سواطع على تبصّره، وسمعت أن عَرّبها بعض العلماء، ولكن ما رأيت المكتوبات المُعَرَّبة، انتهى بأدنى اختصار.

يقول راقم هذه الأحرف: قد اشتهر في الألسنة تأليف محمد بك الأوزبكي المُسَمّى بعطية الوهاب الذي مرّ ذكره بتعريب المكتوبات لأنه عَرَّب فيه بعض الجُمَل من المكتوبات، أعني التي حرّفها المُعانِد وإلّا لم يتّصد أحد فيما علمنا لتعريب المكتوبات بالتمام، كما ذكرنا في ديباجة تعريبنا للمكتوبات، وإلّا لما اشتغلنا به. نعم قد عَرّب بعض الجُمَل منها بتعريب كنز الهدايات الذي جمع فيه شيء من مكتوبات الإمام المُجَدِّد وشيء من مكتوبات الإمام محمد معصوم قُدِّس سرّهما، وانْتخب أيضًا من مكتوبات المُجَدِّدية بعض المشايخ الفُضَلاء انتخابًا جيّدًا بالتعريب، ولا زال العلماء والمشايخ يُعَرِّبون منها ما تعلّق به غرضهم قديمًا وحديثًا، وإلّا فلم أعثر على تعريبها بالتّمام، والله سبحانه أعلم.

ثم قال مولانا غلام علي البلكرامي في ترجمة ملّا محمود الجونفوري الفاروقي صاحب الشمس البازغة في الحكمة: ولا رَيْب أنه لم يظهر بالهند مثل الفاروقيين أحدهما في عِلْم الحقائق، وهو مولانا الشيخ أحمد السّرهندي المُقَدَّم ذكره، والثاني في العلوم الحِكْمية والأدبيّة وهو المُلّا محمود صاحب الترجمة، انتهى ما تعلّق به الغرض من النقل عن سبحة المرجان.

نُقِلَ في الهدية المُجَدِّدية نقلاً عن مولانا الشيخ عبد العزيز الدِّهْلوي رحمه الله ما معربه: كانت الولايات رائجة ومُتداولة في قرب زمانه المسعود ﷺ بين الصحابة والتابعين وتَبَع التابعين وهلمّ جرًّا إلى زمان الجُنَيْد وأقرانه، ثم هلمّ

جرًا إلى زمان رؤساء القادرية والجشتية وصار طريق تحصيلها مدوّنًا ومُبَوَّبًا ومُفَصَّلاً بخلاف طريق الخلّة، فإنها لم يذكرها أحد في تلك العهود المتطاولة، ولم يبيّن طريق تحصيلها، فاختفى طريق تحصيل ذلك المقام وراء حُجُب الاختفاء والاستتار، إلى أن مرّت عليه ألف سنة، فأظهر الحقّ سبحانه حضرة المُجَدِّد قُدِّس سرّه وجعله منشأ ظهور هذا المقام الذي كان مُودعًا ومَكْنونًا في جوهره الشريف ﷺ، فتيسّر سلوك هذا الطريق لآلاف من الطالبين ببركة وجوده قُدِّس سرّه وطفيليّته، والحمد لله على ذلك.

والآن نبيّن الطريقة على وجه ينكشف به اختصاص ذاك المقام باتّباع المُجَدِّد قُدِّس سرّه كالشمس في رابعة النّهار.

اعلم أن الطُرُق كانت قبل المُجَدِّد كلّها من طريق المحبّة والمحبوبية كانوا يسلكون أولاً طريق المحبّية، ثم كانوا يفوزون أخيرًا بمرتبة المحبوبية، وكانوا يَسْعَون سَعْيًا بليغًا في لوازم المحبية؛ كذِكْر الجهر والوجد والشوق والانكسار والتضرّع والصّبر والتوكُل وطلب مرضاة المحبوب الحقيقي ومراقبة صفاته خصوصًا الإحاطة والمَعِيَّة والاستغراق في التوحيد الفعلي، وجعل نفسه كالميت بين يدي الغسّال، ورؤية صفاته وصفات غيره مستهلكة في صفاته تعالى، بل جعل ذاته مُنْدمجة في ذاته تعالى ومشاهدة حُسْنه وجماله تعالى في كل مَظْهر، إلى أن كانوا يفوزون بالأنوار والتجلّيات في ابتداء السلوك، وبالفناء والبقاء في انتهائه، وكانوا يشعرون بالاتحاد بل يدعونه كقولهم:

أنا مَن أهوى ومَن أهوى أنا [نحن روحان حللنا بدنا]

إلى أن عَلِمَ الخضر عليه السلام الذِّكْر الخفيّ لحضرة الخواجه عبد الخالق قُدِّس سرّه الذي كان إرهاصًا للطريقة المُجَدِّدية، ثم حصلت الطّراوة والنّضرة لهذا المعنى في عهد الخواجه النقشبند قُدِّس سرّه، ولكن امتزجت العلوم التوحيدية بهذه النسبة في عهد حضرة الخواجه عبيد الله أحرار قُدِّس سرّه وغلبتها حتى أوصل حضرة المُجَدِّد قُدِّس سرّه كل ذلك إلى البطون، يعني بلغها إلى نهايتها وحَصَّلها وحازها بالكمال، وأظهر من حاق صدره طريقًا إلى المحبوب، فأُلغيت تلك التكلّفات، وزال الشوق والوَجْد والحالات

والتضرّعات، فكل ما هو موجود فهو في القلب والروح والسرّ والخفيّ والأخفى وعناصر البدن حتى تقع الأنوار والتجلّيات من باطن السالك، أي يصدر ويظهر منه وينجرّ الأمر بالتدريج إلى مقام الخلّة، ومعنى المحبّية هو العاشقية، ومعنى المحبوبية هو المعشوقية، ومعنى الخلّة المُصاحبة والصدّيقية، وكان الأمر سابقًا العاشقيّة والمعشوقيّة، وهنا الاشتياق والتضرّع من الجانبين والمعاملة من الطرفين، وفي العاشقيّة الصَّيْحَة والقلق والاضطراب ودقّ الرأس بالأبواب والجدران، وفي المعشوقيّة الغنج والدّلال والفخر والمُباهاة، هذا هو بيان طريق الخلّة على الإجمال، ومن أراد تفصيلها فليصحب واحدًا من أتباع المُجَدّد عدة من السنين، يعني برعاية شروطه وآدابه، ثم لينظر إلى وجدانه وليراجع فيه ماذا يظهر له وراء الطريقين السابقين، انتهى.

وقال صاحب جواهر الحقائق في كتابه المذكور على ما نقله عنه في الهديّة المُجَدّدية ما مُعْربه: إن الإمام الربّاني الشيخ أحمد السرهندي من أكابر الصوفية وجامع بين العلوم الظاهرية والباطنية وصاحب المقامات العَليّة والكرامات الجَليّة، وكان أكثر العلماء والعُرَفاء يُعَظّمونه ويُوَقّرونه، وذهب الفاضل المُحِقّ مولانا عبد الحكيم السيالكوني إلى مُجَدّديته وقال: إنه مُجَدّد المائة الحادية عشر، واشتهر في زماننا هذا مشاهير العرفاء في الهند والسّند والعرب والعجم خصوصًا في الروم والشام والعراق وبلاد الأكراد وسائر البلدان في سلسلته اشتهارًا تامًّا، وهو الذي نشر أنواع العلوم والأسرار وحاز في شرح مقامات الطريقة قَصَب السّبق على السابقين، وهو صار مُعَزّزًا بفهم المقطعات القرآنية، وامتاز بحصول أسرار المُتشابهات الفرقانية، وهو الذي انكشف له أسماء الأنبياء الذين مضوا بأرض الهند وأتباعهم، وبين مقاماتهم ودرجاتهم، وهو الذي بيَّن بأعلام إلٰهيّة مراتب الولاية والنُّبوّة والرسالة وكمالات أولي العزم ومقامات الخلّة والمحبة، وأظهر خصوصيات سيّد الأنبياء عليه وعليهم الصّلاة والسلام وقَدّس الله روحه وروح سائر الأولياء، وأفاض علينا من فُتوحهم، آمين. انتهى.

وهذا قطرة من بحار مناقب هذا الإمام الهُمام قُدّس سرّه ونبذة من أحواله الظاهرة جمعناها هنا رجاء أن ينتفع بها بعض من لم يقف على كُنْه أخباره أو

سمع من المُعَاندين خلاف الواقع، وهو من أصحاب الأذهان القاصرة، وليس القصد منه استيفاء جميع كمالاته الظاهرة أو التعرّض لبيان بعض خصائصه الباطنة، كلّا؛ فإن هذا ممّا لا يُرام، ولا يُمْدَح مَن رامه بل يُلام، وإني لنملة عرجاء مساحة مسافة السماء الفسيحة الأرجاء، وإن كان الأسلم حوالة معرفة أحواله على ملاحظة آثاره ومطالعة أقواله، فإنه لا شيء أدلّ على معرفة الشيء من الاستدلال بآثاره عليه؛ ولذا قيل: **شعر**:

إن آثارنا تدلّ علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

خصوصًا آثاره قُدِّس سرّه حيث عَمّت أنوارها كافة الأقطار، حتى قال بعض المشائخ: إن الإمام ترك بعده كرامتين: المكتوبات والأولاد. قلت: فاته الثالث وهو الخلفاء العِظام الكِرام، فإن طريقته كما انتشرت بواسطة أولاده انتشرت أيضًا بواسطة خُلفائه، وكذلك أولاد أولاده وخلفاء خلفائه وهلمّ جرًّا إلى عصرنا هذا، حيث لا تزال تنتشر وتزداد يومًا فيومًا إلى كافة الأقطار على مرور الدهور والأعصار، فهل يكون شيء أدلّ على علوّ شأنه قُدِّس سرّه من هذه، وهل يحتاج من أمْعَن النظر فيها إلى الاستدلال بشيءٍ آخر على معرفة أحواله؟ كلّا. **شعر**:

وليس يصحّ في الأذهان شيء إذا احتاج النّهار إلى الدليل

إلّا أن المشارب لمّا كانت مختلفة، والإنكار والمُعاندة والمخالفة ونَشْر الأباطيل والأراجيف جارية غير مفقودة، والتقليد في أكثر أبناء الزمان غالبًا، والتحقيق مفقودًا، رأينا الأصلح لهم التداوي من داء الإنكار بمَرْهم نَقْل أقوال هؤلاء العُلماء العِظام رحمهم الله تعالى الذين كتبوا ما كتبوا لمَحْض إبطال الباطل وإحقاق الحقّ من غير شائبة الأغراض النفسانيّة والوساوس الشيطانيّة، فمن اختار التقليد فليقلّد هؤلاء الأعلام وليترك قول اللّئام، ومن رفع رأسه عن حضيض التقليد إلى قُلَل الاستدلال وذُرَى التحقيق، فلْيُجل نظره في مجالي آثاره قُدِّس سرّه، وليرجع بصره هل يرى فيها من فطور، ثم ليرجع البصر كرّتين ينقلب إليه البصر خاسئًا وهو حسير، ويترنّم لسان حاله بهذه الأبيات بعد اعترافه بالتقصير: **أشعار**:

أعجب به من سائر ما عاقَهُ حُجُب المراتب ولا وَصفوُ مرائي

حتى انتهى لمّا بدا بنهاية　　للسائرين وراء وراء وراء
في شأنه رُتَبِ المَدِيح تقاصَرَتْ　　فلذاته اللأوصف وَصْف وفاء

وليكن هذا آخر ما قصدنا إيراده في هذه المجلّة الحقيرة على مقتضى الأحوال، ونسأل الله سبحانه بها النّجاة من سائر الأهوال، ولله درّ من قال: شعر:

شنّف بذكر ذوي المحبّة مسمع　　فبذكرهم تتنزّل الرحمات
فبحبّهم وبمدحهم وبجاههم　　وافى السرور وطابت الأوقات

والحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

تمّ الجمع في سنة 1309 وإصلاحه بالزيادة والنقصان سنة 1314 مستهلّ رجب الفرد، أعني ليلة الأحد بعد العشاء الأخيرة.

فهرس المحتويات

ترجمة أحوال الإمام الرباني